مجلّة

المجمع الجزائري للّغة العربيّة

مجلة لغوية علمية محكمة تصدر عن المجمع الجزائري للغة العربية

العدد 24 السنة الثالثة عشرة - ديسمبر 2016 م الموافق لـ ربيع الأول 1438 هـ

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

مجلة لغوية علمية محكمة يصدرها المجمع الجزائري للغة العربية

المدير المسؤول

د. عبد الرحمن الحاج صالح

رئيس التحرير

عثمان شبوب

اللجنة العلمية

د. محمد صاري

د. أحمد حساني **د. التواتي بن التواتي**

د. بشير إبرير **د. عبد الجليل مرتاض**

عنوان المراسلة : 06 شارع العقيد بوقرة - الأبيار - الجزائر

البريد الالكتروني : aala@wissal.dz

هاتف : 213 021.23.07.90 الفاكس : 213 021.23.07.81

* المقالات التي ترد إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أولم تنشر
* كل باحث مسؤول عن آرائه

محتويات العدد

1 - أنماط الصياغة اللغوية الحاسوبية والنظرية الخليلية الحديثة

أ.د. عبد الرحمن الحاج صالح.....9

2 - عن لغة الطفل العربي المعاصر

أ.د. عبد العزيز المقالح.....29

3 - المصطلح العلمي بين الواقع و التوحيد

أ.د.وفاء كامل فايد.....45

4 - أول معجم لغوي جزائري من التراث في حلة معاصرة للشيخ عبد الرحمن الثعالبي «معجم الغريب» مفردات الألفاظ والتعابير من القرآن والسنة والأثر

د.محمد عيسى وموسى 63

5 - الحركة اللغوية والنحوية في الأندلس ظروف نشأتها وأهم منشطيها حتى نهاية القرن الرابع الهجري

أ.د عبد القادر هني.....87

6 - من طب ابن رشد إلى طب ابن حمادوش عبد الرزاق الجزائري

أ.د سعيد شيبان.....111

أنماط الصياغة اللغوية الحاسوبية والنظرية الخليلية الحديثة[1]

للأستاذ الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح
رئيس المجمع الجزائري للغة العربية

إن الصياغة المنطقية الرياضية للنظريات اللغوية هو أمر ضروري لا مناص منه. وليس السبب في ذلك فقط إيتاء الفرصة للباحثين اللسانيين منهم والمهندسين من استثمارها في العلاج الآلي للنصوص وغيرها من البحوث الحاسوبية اللغوية بل الغرض منها هو أيضا الاختبار العلمي الدقيق لقيمتها العلمية عامة وتقدير قدرتها على تفسير أكبر عدد ممكن من الظواهر اللغوية.فالذي سنتطرق إليه في هذا البحث هو مما ذا انطلقت المحاولات للصياغة ومن أي وسط علمي ولأي غرض ثم إلى ماذا صارت بعد ذلك وما هي النتائج التي أنجزتها إن كانت هناك نتائج حقيقة. والذي يعرفه أل الاختصاص في ميدان اللسانيات الحاسوبية في جميع جوانبها تقريبا هو أن هذه الصياغة بالذات ثم البحوث الخاصة بالتعرف الآلي للنصوص المنطوقة وغيرها قد ارتبك أصحابها في السنوات الأخيرة حيث حصل لبحوثهم شيء من الحصروالتوقف وفي بعض الأحيان التراجع الصريح والعودة إلى النظريات التي كانت في النصف الثاني من القرن الماضي موضع ردود شديدة.فسنحاول أيضا أن ندلي برأينا في هذا وسيكون ذلك فرصة لنا للتعرّض لما تركه لنا لغوي رياضي عبقري وهو

1- نعيد نشر هذا البحث استجابة لطلب القراء الكرام.

الخليل ابن أحمد وتلميذه سيبويه من أفكار علمية ومن منهجية تحليلية رياضية عجيبة سبقا بذلك زمانهما وهي جديرة بأن ينظر فيها من جديد وتستثمر بالفعل.

بدأ الاهتمام من أهل الاختصاص في اللسانيات والعلاج الآلي للمعلومات بشكل الصياغة المنطقية الرياضية الذي ينبغي أن تُصاغ به النظريات للسانية،يوم ظهرت أول محاولة في صياغة نظرية المكوّنات القريبة (Im-mediate Constituants) المنتمية إلى المذهب البنوي الأمريكي في اللسانيات. وكان صاحب هذه المحاولة الأمريكي نوام تشومسكي واستطاع أن يقوم بذلك بفضل معرفته المتينة بالمنطق الرياضي. وسمي هذا الميدان بالبحث في الأنحاء الصورية (Formal Grammars). ويندمج هذا فيما وضعه في ميدان اللسانيات مما سماه بالنحو التوليدي (Generative Grammar). يسمى الـ Model أو النمط الخاص بالصياغة فيه بالـ (Phrase Struc-ture Grammar) ومعناه " النحو البنائي(والـ Phrase هنا معناه التركيب والبناء من أكثر من مورفيم). وعالج هذا بصفة خاصة في كتابه المشهور الملقب(Syntatic Structures) (البُنى التركيبية). ومن المعروف أنه أضاف إلى هذا النمط من الصياغة نمطًا آخر مغايرًا تمامًا للأول وسماه بالنحو التحليلي (Transformationnal Grammar). وهو محاولة جديدة كان يريد أن يكمّل بها النحو التوليدي[1].هذا مع الملاحظة أن ما أصدره تشومسكي من أفكار لم تكن له أية علاقة بالعلاج الآلي للنصوص اللغوية[2].فقد

1 - ونعني بالبناء هنا ما فوق المورفيم من التراكيب.كما سبق أن قلنا(Syntagme).

2 - أما العلاج الآلي للنصوص اللغوية فهذا أقدم من صدور كتاب تشومسكي(1957) وكان الاهتمام السائد في هذا الميدان في ذلك الوقت الترجمة الآلية(بدون أي وسيلة تخص صياغة النظرية اللغوية)ولهذا كان مآلها الفشل.

كان عمله هذا في الحقيقة ردًّا على النزعة الوصفية المتطرفة التي كانت تنفي من دراسة اللغة جانب الضبط(القواعد العلمية)وتكتفي بالوصف والتصنيف لعناصر اللغة كما هو معروف.فالذي نعالجه في هذا البحث هو موضوع هذه الصياغة كما قلنا وإلى ماذا صارت في ميدان العلاج الآلي للنصوص ولماذا لم تُصَغْ نظرية النحو التحويلي وما هي المحاولات التي ظهرت حديثا في ميدان الصياغة نفسها.

إن اللغة كما هو معروف لا تُصاغ بل النظريات اللغوية هي التي تُقصد بالصياغة لأن اللغة الطبيعية هي مجموعة من الظواهر وتحليل الظواهر ثم الافتراضات التفسيرية لها هي التي يحاول الباحث المؤهل لذلك أن يصوغها الصياغة المنطقية الرياضية المناسبة.وليست كل النظريات قابلة للصياغة فمنها التي تحتوي على تصوّرات ومفاهيم غير محددة التحديد الدقيق (وتكون فيها أكثر من مصطلح لدلالة على مفهوم واحد) ومنها التي تكون مدلولات ألفاظها زيادة على ذلك،يصيبُها الدور: لفظة ا تحدّد لفظة ب وبالعكس.فمثل هذا لا يمكن أن يكون قابلا للصياغة.فيجب إذن أن يُحدّد كل مفهوم بمفاهيم مستقلة عنه حتى نصل إلى عدد قليل جدا من المفاهيم التي لا تحدّد وهذا لتفادي التسلسل وتسمى بالمفاهيم الأولية. وكذلك هي القضايا الأولية كالمبادئ أو الأوليات(Axioms) والمصادرات والفرضيات.

وأما ما صاغه تشومسكي من نظرية المكونات القريبة فهو عنده " نحو" إلا أنه نحو علمي (غير تعليمي وغير فلسفي) للغة معينة وقد يصبو أن ينطبق على جميع اللغات أو أكثرها في أصوله العامة.وغايته هو أن يولّد مجموعة لا نهائية من الجمل سليمة التكوين بلغة من اللغات.وأن يشرك بكل واحدة منها وصفا دقيقا لبنيتها.وأن يتمكن، زيادة على ذلك،من

الكشف عن الجمل غير السليمة التكوين ببيان درجة انحرافها.والسلامة هنا ناتجة عن تطبيق أصول معينة.

فالنحو الصوري هو مماثل في ذلك للمنطق الصوري المعاصر الذي يرمي إلى التمييز **بكيفية آلية** بين التراكيب من الرموز السليمة وغير السليمة بحسب ما تقتضيه مجموعة من الأصول المتواضع عليها.

وهذا ينطبق على كل نظام أو نسق – زيادة على ما يوجد في المنطق– من الرموز ومن ألفبائية معيّنة يُقصد منه التوليد (أو التحديد الرياضي) بالاعتماد على عدد من الأوليات (Axioms) وعدد من القواعد (ويطلق عليه اسم الـ Axiomatics). فالصياغة للنظريات اللغوية تكون غالبا على هذا الشكل (الأكسيوماتي).

فقد صاغ تشومسكي "نظرية المكونات القريبة"على هذا الأساس.فهي تتكون،في الواقع،من الرباعية التالية:

1 - مجموعة متناهية (أو منتهية) عط من العناصر الملقبة بالطرفية(Terminal Termes)وهي عناصر اللغة الحقيقية (الكلم أو المورفيمات) التي ينتهي إليها التحليل.

2 - مجموعة متناهية من العناصر ع غ غير الطرفية: وهي مصطلحات النحو كالاسم والفعل والصفة الخ.

3 - مجموعة من القواعد ق وهي في هذه الصياغة خاصةً من هذا الشكل:س ← ص (= تستبدل س بـ ص أو يُعاد كتابتها).

4 - رمز أولي تنطلق منه العمليات.

إن هذه الرباعية هي عبارة عن نظام تفريعي يُبنى،كما رأينا، على هذه الأركان الأربعة.ويكون التفريع أو التوليد لكيانات تتركب من العناصر

الطرفية ويكوّن مجموعها الكلام[1] (Language) الذي يولّده هذا النظام إلى ما لا نهاية.وتعتمد عمليات التفريع على قواعد وهي ههنا عبارة عن تعليمات لاستبدال شيء بشيء. والكلام الذي يولّده هذا النظام يمثل مجموعة جزئية من مجموعة:ع ^{b}Uع ^{غ}.

وبما أن التحليل إلى مكونات قريبة مبني على التجزئة المتدرجة تجزأ كل مجموعة من الكلم إلى ما تحتها من الأجزاء القريبة فقد وُفّق تشومسكي في اختياره لتمثيل هذا التحليل **بالتفريع الشجري**.إلا أنه أخطأ ههنا ككل البنويين وهو اعتبار هذا النظام المبني **على اندراج شيء في شيء**(Inclusion) على أنه **بنية الجملة**.وههات أن تنحصر بُنى الكلام البشري في هذه القسمة الساذجة.

وعلى الرغم من هذا فإن تشومسكي استطاع بصياغته[2] هذه أن يبيّن بوضوح تام النقائص التي يتصف بها هذا التحليل كما كشف أيضا عن النقائص الفادحة التي تتصف بها النظرية الوظيفية.وقد بيّن أن التحليل الذي اختص به الوظيفيون هو خاضع لتوالي عناصر الكلام وله إذن شكل خطي وتسلسلي وبالتالي ليس له إلا بُعد واحد (إذ ليس له عمق).وبرهن لمى أنه تحليل مماثل للنمط المنطقي المسمى بنحو"كلين" (Kleen Gram-mar).ويدخل هذا النحو في النمط الماركوفي[3] وهو ما يسمى بنمط الأحوال المنتهية أو نظرية سلاسل ماركوف. وهو في الواقع محاولة لردّ المِحْوَرين

1-الكلام هنا بمعنى الجمل والعبارات (حقيقية أم موضوعة).

2-وقد انطلق تشومسكي في ذلك من الدراسات الرياضية الخاصة بالدوال التكرارية (Recursive Functions) ومن نظرية الأواليات = الأجهزة الآلية (Theorie of Auto-mata).

3- ماركوف(Markov)هو إحصائي روسي درس القيود التي يتقيد بها تسلسل الحروف بتحديد احتمالات ظهور كل حرف بالنسبة لما سبقه.

اللغويين:التركيبي والاستبدالي كلاهما أفقيا ولهذه المحاولة حدود معرقلة تجعله عقيما في الغالب.

وهذا الذي أدّى تشومسكي إلى اقتراح نهج جديد وهو اللجوء إلى مفهوم التحويل وهو مفهوم كان يعرفه النحويون التقليديون منذ القديم وهو من أسس النحو العربي كما سنراه.

في كتابه المشهور"Syntactic Stuctures" عرض تشومسكي تصوّره في كيفية استغلال مفهوم التحويل كتكملة لا بد منها لما كان وضعه في النحو الصوري.والتحويل عنده في دفعته الأولى هو عبارة عن علاقة قائمة بين جملتين تكون إحداهما أُخذت عن الأخرى بمجوعة من التغييرات.وتكون الجملة المفرع عنها أبسط من الفرع وبالتالي تكون كالنواة لها (Kernel).وذلك ككل الجمل التي تصير بزيادة كلمة أو أكثر جملا أخرى كزيادة أدوات النفي أو الاستفهام أو الشرط وغير ذلك أو بزيادة مع تقديم وتأخير مثل الانتقال من المعلوم إلى المجهول في العربية[1] وغير ذلك.ويمثل ذلك بتحويل شجرة (الممثلة عنده لبنية الجملة)إلى شجرة ثانية بإجراء العمليات التحويلية المطلوبة.فاقترح على هذا الأساس مجموعة من المقاييس والأوصاف لوضع قواعد التحويل. وكان قد استوحى ذلك مما وضعه شيخه هاريس لأول مرة في تاريخ البنوية [2].

ومثل هذا اقتراح يأتي بجديد حقا إلا أن المهندسين أولعوا بالنحو الصوري لسهولة علاجه ولم يهتموا بالتحويل حتى صارت لغات البرمجة لا

1- وهو لا يطابق تماما تحويل الجملة الانكليزية (أو الفرنسية)المسماة بـ Activeإلى الجملة المسماة بـPassive .

2- فالبنوية لا تعرف التحويل إطلاقا لأن أسسها هو دراسة ذوات الوحدات باكتشافها وتحديدها وتصنيفها.أما العلاقات القائمة بينها- وخاصة بين الجمل- فلا يلتفتون إليها إلا بالشكل السكوني غير التحويلي.ونستثني من البنويين Hockett (في وصفه لنمط سماه Items and Process) وخاصة عند زليج هاريس شيخ تشومسكي.

تعرف إلا النحو الصوري ومنها لغة Lispe ثم لغة Prolog(ويذكر المهندسون تشومسكي كأنه من جماعة الاختصاصيين في وضع البرمجيات!).وربما كان السبب في ذلك -في اعتقادنا- أن التحويل لم يُصغ الصياغة اللائقة مثل ما تم ذلك بالنسبة للتحليل إلى مكونات قريبة وبالتالي لم يُدمج بعد،في علمنا،في لغة من لغات البرمجة.

وهناك سبب آخر لا نشك في أنه قد عطّل ذلك إلى حد بعيد وربما منع تبني الحاسوبيات لمفهوم التحويل.فقد ألف تشومسكي في 1965 كتابا سماه: Aspects of the Theorie of Syntax صار فيه التحويل مفهوما آخر وجدّ محدود ومعقد.وذلك على إثر ما عابوا عليه من الاهتمام باللفظ دون المعنى وانتقادات أخرى.فرد على ذلك بافتراض وجود بنية لا تخرج إلى ظاهر اللفظ وهي عنده البنية العميقة. وهي التي تحمل المعنى فعندما يكون ظاهر اللفظ- وهو عنده البنية السطحية- تحتمل معنيين فلا بد أن يقابلها بنيتان عميقتان.فالتحويل صار من ذلك الوقت تحويلا يغيّر البنيتين المختلفتين إلى بنية واحدة في ظاهر اللفظ.وعمم مفهوم البنية العميقة وجعلها المنطلق لكل تحويل يُفضي إلى جملة سطحية.والبنية العميقة هذه تشبه إلى حد بعيد الأصل المقدّر في النحو العربي إلا أن التقدير العربي هو استثنائي لا يُلجأ إليه إلا إذا خرج اللفظ عن أصله.فتركُه للتحويل عن الشكل الأول هو انحراف من تشومسكي بيّن.وربما أدّى ذلك المهتمين بالصياغة من -اللسانيين والرياضيين إلى اتجاه آخر. وقد رجع عن هذا التعقيد في 1976 في بحث له عنوانه Conditions on Transformations جعل فيه التحويل أبسط مما كان[1] بكثير.

1 - وقد طوّر تشومسكي أفكاره ونظريته بعد ذلك إلى حد بعيد.

وعلى الرغم من ذلك ومن صياغته للنحو التحويلي على شكل أبسط فإن ذلك لم يكف لتشجيع الاختصاصيين على استثماره في البرمجيات وإن كانت هناك محاولات إلا أننا لا نعلم أن أحدًا أدمج التحويل كما قلنا في لغة من لغات البرمجة والله أعلم.

فالذي حصل– وهو مؤسف جدا- هو التراجع الكامل عن التحويل في هذا الميدان.فبحث بعض الاختصاصيين (مهندسين ولسانيين) عما يسهل استخدامه مع تحصيل الفائدة ولم يجدوا شيئا إلا العودة إلى مفهوم الصفة المميزة (Feature).وهو أساس المذهب الوظيفي الأوربي في اللسانيات.وقد تجاوز هذا المفهوم كل العلماء في جميع العلوم لأن **الاقتصار** على مجموع صفات الشيء للتعرف عليه هو تقصير وتجاهل لما أسس عليه العلم بعد أرسطو وهو معرفة لا ذوات الأشياء فحسب بل مجموع العلاقات التي تربطها.فهذا رجوع لا إلى الوظيفية فقط **بل رجوع إلى أرسطو نفسه!** بسبب الاكتفاء بالجنس والفصل في تحديد الأشياء. وحتى لا تظهر هذه الفاقة في المفهوم ذهبوا يصوغون ما اختاروه وهو ما بُني على أساس الصفة المميزة والأجناس النحوية على شكل من ذلك يتكوّن نن مجموعات سموها بالبنى أي البنى من الصفات! (Features Struc-tures).

سسُميّت هذه المحاولات بـ"الأنحاء التوحيدية"(Unification Gram-mars)لأنها - كما يدّعي أصحابها- تحاول أن تدمج في نسق وصفي واحد كل المعلومات(الذاتية السكونية)التي تخص الوحدات الدالة وما يتركب منها من مركبات وجمل.والغرض من هذا هو بناء نمط نحوي إفرادي Lexical يُقصَى منه التحويل تماما! فهو بذلك رجوع إلى مفاهيم الوظيفية المبنية على الصفات والتقابل بالصفات وقد أضافوا إلى ذلك النحو الصوري الأول.

فالذي يقصدونه من الصفة فيما صاغوه هو زوج يتشكل من مقولة (Categoria)أي قبيل نحوي وهي اسم لِصفة تشاركها قيمة تنتمي إلى مجموعة من القيم المحدّدة مسبقا (وقد تكون متغيرة أو رمزًا ذريًّا أو مجموعة من الصفات).وذلك مثل:

كتاب [ق = اسم جنس ; ط = ذ /أ=مذكر ; ع=مفرد]

ق= القبيل أي الجنس من الكلم - ط= التطابق- ذ / أ = مذكر/مؤنث -ع= العدد

فهذه المجموعة من الصفات يسمونها:بنية من الصفات أو مصفوفة الصفات وقد تصل إلى حد كبير جدا من التعقيد.وقد تجري على أكثر من مصفوفة عمليات كالاجتماع وغيره.كما وضعوا أيضا مصفوفات أخرى تتضمن لا الصفات الخاصة بالمفردة بل بدورها النحوي:فاعل، مفعول،حال،ظرف،نعت الخ. وحاول بعضهم أن يدمجوا كل ذلك في مصفوفات موحدة.

وأول محاولة كاملة في وضع "نحو توحيدي" ظهرت إلى الوجود فيما وضعته J.BRESNAN (جوان بريسنان) مع R.KAPLAN (كابلان) وهو النمط المسمى بـ L.F.G) Lexical Functionnal Grammar) (النحو الوظيفي الإفرادي) في 1982(وكان سبقهما بعض المهندسين قبل ذلك ببعض الأفكار).ثم تلا ذلك ما سموه بـGeneralized Phrase Structure (G.P.S.G Gram.) أي النحو البنائي المعمم.وأصحابه هم: G.Gazdar و

E.Klein و G.Pullum وI.Sag . ثم أدخلوا على هذا النمط الأخير تغييرات هامة فصار نمطا جديدا وسموه بـ . Head Driven Phrase Structure Gram (H.P.S.G.).وصاحبه هو Sag السابق الذكر مع C.Pollard .وظهر ببكرًا (في السبعينيات)نمط ينتمي إلى هذه النزعة[1] وسموه بـ-Tree Adjoi ning Grammar(.T.A.G).ويتميز عن الأنماط الأخرى باللجوء الكلي إلى التمثيل الشجري للانتظام الاندراجي لمفردات الجملة مع زيادة الأوصاف الخاصة بكل مفردة.

ولا نستطيع في هذا البحث الوجيز أن نصف هذه الأنماط بالتفصيل. فليراجع في ذلك القارئ الكريم ما كتبه هؤلاء الذين ذكرناهم هنا.

أما سبب ظهور مثل هذه النزعة التراجعية (في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات) فهو،في اعتقادنا،عدم تمكن الاختصاصيين في هذا الميدان من وضع لغة برمجة تستجيب لما تتطلبه النظرية التي تُبنى على مفهوم التحويل.فالذي كان موجودا هو البرمجيات التي بُنيت كلها أو أكثرها على النحو الصوري الذي أصله الـ . Phrase Structure Gram (النحو البنائي) وقد تكلمنا عنه في أول هذا البحث.وهو في الرياضيات مجرد منوئيد على حين أن التحويل يقتضي أن يتجاوز هذه البنية لأن له غالبا مناظر وهو التحويل المعاكس فالبنية التي تتضمنه هي بنية الزمرة .ويبدو أن الزمرة لم تدخل بعد في صناعة البرمجيات والله أعلم[2].

1كل هذه الأنماط امتنعت من الاعتداد بالتحويل على الإطلاق واتفقت في اللجوء إلى إدخال قيود منتظمة تنطبق على كل الوحدات وحدة وحدة وفي جميع المستويات في نسق واحد.

2وإن كان بعض الباحثين يواصلون بحوثهم في ذلك في كندا والولايات المتحدة وغيرهما ولا بد من الإشارة إلى وجود ما يسمى بالأنحاء المقوليةCategorial Gram. انطلقت من البحوث في الدلالة والمنطق.وأشهر من يمثل هذه النزعةLambek و Curry كما ظهر منطق بني على القسمة التركيبية:Combinatory Logic منذ عهد قريب .

ولهذا حصل التراجع المذكور فدعا بعضهم إلى إحياء كل النظريات التي كانت تعتمد على أوصاف الذات مثل الوظيفية وترك التحديد الإجرائي وكل ما هو إجراء.كما تمسّك أكثرهم بالنمط البنائي (النحو الصوري الأول) وأضافوا إليه المصفوفات الوصفية أو "البنى من الصفات" بحسب تسميتهم لها.

إن صياغة النظرية لا تزيدها نجاعة وقوة في التفسير إلا إذا كانت النظرية هي في حد ذاتها ناجعة وقوية في التفسير فقد يمكن أن تصاغ الافتراضات البسيطة المحتوى الهزيلة القيمة ما دامت متماسكة وذات مفاهيم واضحة.ولهذا فلا بد من الاعتراف بأسبقية النظرية على الصياغة.

ومن جهة أخرى فإن عدم نجاح الباحثين في الوقت الراهن في محاولاتهم لصياغة بعض النظريات وخاصة التي تتجاوز بنية المنوئيد- في ميداننا هذا- لا يبرّر التوقف التام عن هذه البحوث والتراجع عنها فالعجز الحقيقي يكمن في عدم القدرة على تجديد التصوّر وتغيير اتجاه البحث.

هذا ونعتقد أن ما قام به النحاة العرب الأولون وخاصة الخليل ابن أحمد وتلميذه سيبويه من التحليل الرياضي لنظام اللغة العربية قد يساعدنا على إيجاد الحلّ وهذا الحل هو عندنا وقبل كل شيء في جعل النظرية اللغوية قادرة على تفسير أكبر عدد من الظواهر.وقد كان لنا الشرف أن أجرينا على هذا التراث اللغوي العربي بحوثا كان من نتائجها أن التحليل الخليلي[1] قد يمثل أعمق تحليل لغوي يخص اللغة العربية وسنلخص فيما يلي أهم ما امتاز به اعتمادا على ما أثبته البحث وهو كالتالي:

1- هذه التسمية بالتغليب إذ قد شارك في ذلك زملاؤه وتلميذه سيبويه وأتباعه.ثم ما استخرجنا من ذلك هو نظرية على نظرية(Metatheorie).وأدرك ذلك بعض العلماء في زماننا فأطلقوا على هذا التأويل اسم النظرية الخليلية الحديثة.

1 - التمييز الصارم بين الوضع والاستعمال أي **نظام اللغة المجرد وكيفية استثماره** في واقع الخطاب ولكل واحد منهما اعتبارات خاصة به.

2 - إلا أنه لا بد من التمييز ثانيا بالنسبة للاستعمال بين عمليات المتكلم في إنشائه لكلامه وتصرفه فيه بحسب ما يقتضيه الوضع اللغوي وبين ما يقوم به من عمل يخضع لقوانين الخطاب وما هو خاص به كفرد.وهذا ينطبق على السامع من زاوية أخرى وهو كيفية تعرفه على كلام المتكلم وأغراضه.

3 - نظام اللغة هو مجموعة من العناصر تنتظم على مستويات ولكل مستوى **قسمة تركيبية خاصة** (Combinatory).

4 - المستويات اللغوية هي كالتالي:1.الحروف الصوتية 2.المواد الأصلية× الصيغ (= الكلم المتصرفة)3.الكلم عموما4.اللفظة الاسمية (الاسم مع ما يدخل عليه) واللفظة الفعلية (الفعل مع ما يلازمه من الضمائر والحروف)5.مستوى بناء الجملة وينحل إلى[(عامل¬ معمول أول) ±معمول ثانٍ] ± مخصِّص.

5 - لعناصر اللغة مراتب فبعضها مأخوذ من بعض.فالأصول هي منطلق لعمليات معيّنة تحوّلها إلى وحدات أخرى هي فروعها وذلك بالاعتماد على حدود معينة.

6 - فالتحليل للغة يَعْمَد لا إلى اكتشاف الوحدات اللغوية وتصنيفها فحسب بل أيضا إلى اكتشاف ما يقوم به المتكلم من العمليات المعينة وفي تصرفه في بنى الكلام.وذلك لأن اللغة **هي وحدات وإجراءات تُجرى على هذه الوحدات وليست نظاما جامدا من الوحدات.**

ولا بد من التأكيد بضرورة التمييز بين العمليات التي تقتضيها أصول أو حدود اللغة(وقواعد إنشاء الكلام غير الكلام الناتج عن ذلك)وبين ما تقتضيه قوانين التخاطب (Pragmatics) وما ينفرد به الفرد ولا يدخل في تلك الحدود لأنها لا تعم كل المتكلمين.

7 - لا يُبنى التحليل العربي على تقطيع الكلام باللجوء إلى استبدال كل قطعة بما ثبت أنه وحدة لغوية (طريقة البنوية) ولا إلى تقطيع الكلام إلى أجزاء تتداخل بعضها في بعض بالتدرج (تحليل إلى المكونات القريبة)بل ينطلق النحاة الأولون من"أدنى ما يتكلم به مفردًا " من الكلام المفيد وهو الجملة التي تتكون من مفردة فيما يخص الاسم وذلك مثل" كتاب" في الإجابة عن السؤال:ما هذا ؟أو ما بيدك ؟،ثم يُحوّل هذا إلى وحدات أخرى تكون مكافئة له وذلك بعملية الزيادة كما سنراه فيما بعد.

8 - التحليل الخليلي يميز أيضا بين نوعين من التأليف بين العناصر: ما هو **وَصْل** (Concatenation) مثل ما يوحد بين المضاف والمضاف إليه وما هو **بناء** مثل ما يربط بين حروف الكلمة أو بين المبتدأ والخبر.فالأول هو مجرد ضم عنصر بعنصر وحذف المضموم لا أثر له في بقاء الأول.أما الثاني فهو **تركيب عنصرين فأكثر في بنية** بحيث إذا حذف شيء من ذلك تلاشت الوحدة المتكونة منهما.

9 - التحليل الخليلي هو رياضي كما قلنا:**فالقسمة التركيبية** كمفهوم رياضي تنطبق مثلا على المواد الأصول: فالحروف العربية الصامتة تتركب التركيبات التي تقتضيها القسمة على ما يسميه الخليل بوجوه التصرف في الثنائي أو الثلاثي أو الرباعي ويُسمى كل تركيب منها بابًا مثل:ض رب/رب ض/ب ض ر/ب رض/رض ب/ض ب ر.وكل باب قد يوجد في الاستعمال وقد لا يوجد.فما لا يوجد هو مجموعة خالية وكذلك هي الصيغ فباب

فِعُل مجموعة خالية وباب فِعِل وحيد العنصر(إبل في المشهور).وقد اخترع الخليل حساب العاملي(Factorial) في هذا الميدان لأول مرة في التاريخ.وقد ظهر أيضا لأول مرة في تاريخ العلم مفهوم الصفر في تحليل اللغة وخاصة في داخل البنى مثل العلامة غير الظاهرة عند سيبويه ومفهوم الابتداء وغير ذلك.

10 - ومن المفاهيم الرياضية- السابقة لأوانها بألف سنة- ما يتضمنه القياس النحوي (لا الفقهي) من معنى التكافؤ في البنية(توافق البناء كما يقول النحاة).وقد بلغ درجة عالية من التجريد.فقد بينوا الايزيمورفيزم القائم بين الكثير من البنى اللغوية المختلفة في الظاهر كالتوافق الموجود بين التصغير والتكسير للرباعي وغير ذلك.

11 - ومن المفاهيم المنطقية الرياضية نذكر مفهومي العامل والمعمول أو بالأصح العناصر التي تكوّن البنية العامة لكل كلام عربي(وقد ذكرنا ذلك فيما سبق)وتنحصر في هذه الصيغة:

[(ع ← م^1) ± م^2]± خ

ع= العامل /م^1=المعمول الأول/ ← = يلزم منه بعده دائما (فهو زوج مرتب)/م^2 = المعمول الثاني/وما بين المعقوفتين هو النواة للبنية الكلامية وخ= مخصص.

فهذه الصيغة للجملة(أي الجملة في نواتها) تنتمي إلى مستوى من التجريد أعلى من مستوى الفعل والفاعل والمبتدأ أو الخبر وغيرها.وهذا لا يوجد إطلاقا فيما ظهر إلى الآن في علوم اللسان الحديثة[1] (وكذلك هي

1- واستعار مفهوم العامل تشومسكي (وكان قد استعاره نحاة أوربا في القرن الثالث عشر).

صيغة الكلمة الممثلة بالوزن:لا يوجد مثلها إطلاقا ومعرفة بعضهم لها هو لكونهم اطلعوا على النحو العربي أو أخبروا بوجودها فيه).ويجهل أو يتجاهل اللسانيون في زماننا قوة هذه الصيغ التفسيرية الشاملة حتى العرب منهم.

والعامل،كما سنراه، هو في هذا المستوى وهو محور البنية:الفعل والنواسخ وإنّ وأخواتها.والأصل في الجملة الاسمية هو الصفر أي الابتداء. وم1 هو ما لا يستغني عنه العامل كالفاعل واسم كان أو إن أو حَسِب.وم2 لا يستغني عنه في الجملة الاسمية وهو الخبر.أما في الجملة الفعلية فهو المفعول به.وأما المخصص فهو كل ما يأتي زيادة على النواة من المفاعيل (سوى المفعول به) والحال وغير ذلك.

12 - ومفهوم آخر مهم جدا له علاقة بكل ما سبق هو الموضع.وليس هو الSlot الذي هو عند البنويين الأمريكيين موقع الوحدة في مدرج الكلام.بل هو أعمق من ذلك إذ قد يكون خاليا مثل أي موضع لا يشغله لفظ مثل المثال السابق (كتابْ=هذا كتابْ) ففيه موضع لمبتدأ لم يُلفظ به.ومثل:"ع" (صيغة الأمر من وعي).ففيه موضعان خاليان:الفاء واللام. وكتقديم المفعول على الفاعل فموضع المفعول لم يتغير مهما كان موقعه في اللفظ.ثم الموضع يكون فيه أكثر من لفظ واحد وذلك في مثل التوكيد وعطف البيان والبدل. وقد يغطي اللفظ الواحد موضعين أو ثلاثة وهو في موقع واحد (ولا يقدر اللفظ كلفظ أن يشغل أكثر من موقع بالطبع)وذلك مثل ما في جملة: أين زيد ؟ فالظرف هنا في موضع الصدارة أي في موقع يتقدم دائما على العامل والمعمول وهو أيضا في موضع الخبر وتقديمه على

المبتدأ واجب لأنه استفهام.فالموضع النحوي يشبه إلى حدّ بعيد الموضع الطبولوجي. Topological Position

هذا ويمكن أن نقول بأن البنية اللغوية في هذا التحليل عبارة عن **مجموعة من المواضع على هيئة اعتبارية خاصة.** والدليل على ذلك هو تمثيل البنية العامة للكلمة والجملة المفيدة.أما وزن الكلمة[1] ففيه رموز تمثل الحروف الأصلية وهي من المتغيرات (ولذلك تمثلها رموز) ففي فَعَل:كل من الفاء والعين واللام تمثل في الحقيقة موضعًا معينًا يمكن أن يشغله أي حرف من صوامت اللغة العربية.كما أن كل من (ع) و(م^1) و(م^2) و(خ) موضع قد يكون خاليا.

هذا وقد اكتشف النحاة العرب الأولون -وجهله المتأخرون- ظاهرة هامة جدا هي:

من جهة:

- وجود وحدات ثابتة هي في ذواتها من حيث الطول ولها شكل القطعة Segment (وتزاد عليها علامات المفردة)وهي الكلمة المفردة ووجود وحدات قابلة للامتداد وهما الاسم المتمكن والفعل المتصرف في حدود معينة.

ومن جهة أخرى:

- وجود وحدات ليس لها شكل القطعة ولا الممتدة منها ولا يمكن أن يُلفظ بها مع أنها تدل على معنى هي بذاتها ولا يدل على معناها شيء آخر غيرها وهما:المادة الأصلية مثل: ا ك- ت- ب - ا فهي تدل على مفهوم الكَتْب عامة أو الكتابة بدون أي تخصيص ويوجد ذلك المعنى العام في جميع المفردات المشتقة منها بزيادة دلالية.وكذلك هي الصيغ ففِعالة تدل هي وحدها على معنى الصناعة في" كتابة".

---

1 - وفي هذا المستوى لا يتقدم العنصر على غيره.

فهذا الاكتشاف انفرد به اللغويون العرب.ومع ذلك فقد نجد في اللغات الجرمانية ما يحتاج إلى تحليل إلى أصل وصيغة وذلك كالجمع في Manو Menو Child و Children.فأما اللسانيون المحدثون فأدّاهم تحليلهم التقطيعي المتسلسل أو الاندراجي- ولا يعرفون غيرهما- إلى إيجاد مفهوم "المورفيم المتقطع"!وهذا سببه تصوّرهم للوحدات اللغوية أنها قطع صوتية متسلسلة ليس إلا!(وهذا ينحصر في المتقطع"!وهذا سببه تصوّرهم للوحدات اللغوية أنها قطع صوتية متسلسلة ليس إلا!(وهذا ينحصر في الكلام المنطوق).

ونصل الآن إلى تلك العمليات التي يجريها المتكلم في إنشائه لكلامه ويمكن أن يردّ أكثرها إلى مفهوم التحويل.وهو عند النحاة الأولين تحويل من الأصول إلى الفروع.فبالنسبة إلى ما سميناه "اسمًا" فليس من مقصود سيبويه من إطلاق هذا المصطلح فقط النوع من الكلم الذي مَثَّل له بـ: رجل وفرس وحائط.فهذه أمثلة لـ "الاسم المفرد" أي النواة للوحدة القابلة للامتداد وسميناها "اللفظة" فقد سبق أن ذكرنا ذلك كما ذكرنا أيضا أن منطلق التحليل عندهم هو الكلام في أدنى ما يكون وهو الاسم المفرد (أو الفعل مع ضمير الرفع) ومنه تنطلق التحويلات بزيادة فيما قبله وفيما بعده لعناصر معينة. ويمكن أن يرسم ذلك هكذا:

حدّ الاسم (في تصرّفه أو مجراه)

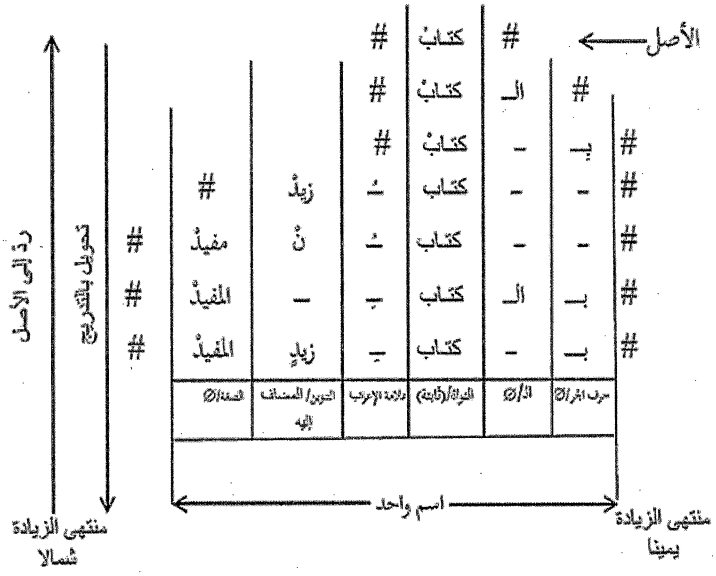

ملاحظة: # : علامة الوقف.

1 - هذا هو المثال المولّد للاسم (وهو بذلك يتجاوز الكلمة المفردة مع إمكانية وجوده على هذه الحال) ووضعنا لهذا المفهوم مصطلحا انكليزيا هو Pattern Generator وبالفرنسية:-2 Schème Générateur التصرف في هذا المستوى هو بعملية الزيادة إلى الكلمة المفردة.والعنصر المزيد يمكن أن يدخل على المفردة موصولا بها لا مبنيا عليها ويصيران اسما واحدا. وقد تعاقب بعض المزيدات مزيدات أخرى: أفقيا تعاقب ال المضاف إليه والتنوين وعموديا يعاقب المضاف إليه التنوين في نفس الموضع.

2 - لا بد من التأكيد على أن: #كتاب # و # الكتاب # و # بالكتاب # وبالكتاب المفيد # كلها متكافئة إذ تمثل كل واحدة منها اسما فالمجموع كله اسم ولا يقال "اسم المفرد" إلا في حالة انفراد النواة فقط.

3 - يلاحظ أن الزيادة محدودة يمينا وشمالا فلا تتجاوز موضع الجارّ ولا موضع الصفة.ومجموع المواضع تكوّن بنية الوحدة (اللفظة) القابلة للامتداد التقلّص في هذه الحدود.

4 - وفي هذه الوحدة موضعان: موضع المضاف إليه وموضع الصفة يتصفان بقابلية محتوى كل واحد منهما على التكرار أو الإطالة إلى ما لا نهاية (Recursiveness).

وأهم شيء يمتاز به "حدّ الاسم" هو أنه يحدّد كيفية توليد الأسماء (لا بناء الاسم الداخلي)[1]على اختلاف أنواعها.وهو على هذا، حدّ رياضي لأنه لا يكتفي بوصف الأسماء[2] في ذاتها كما تفعل الوظيفية وأتباعها من أصحاب "النحو التوحيدي"،كما رأيناه، بل يتجاوز ذلك إلى بيان طريقة التوليد وهو دائما في الرياضيات حدّ إجرائي لأن الكيانات الرياضية تحدّد بالعملية أو العمليات التي تولدها (كمجموعة العدد الصحيح الإيجابي: العدد+واحد ابتداء من0) .

وعلى هذا فإن هذه المجموعة من التحويلات ابتداء من أصغر وحدة هي صورة للاسم في تولُّد وجوهه التي تقبلها اللغة إلى ما لا نهاية إذ تشكل

1 - فهذا يولده وزن الاسم.

2 - وحتى هذا الوصف يقتصر عندهم على التمييز بين المذكر والمؤنث أو الفاعل والمفعول وغير ذلك ولا يراعي في ذلك البنية كما حددناها.

بالضرورة بنية رياضية وليست هي المونوئيد بل هي الزمرة بدليل بنائها على عملية تجميعية مع وجود عنصر محايد وهو عدم الزيادة ووجود تناظر في المجموعة بإمكانية رد الشيء إلى أصله حسب تعبير نحاتنا فلكل تحويل تحويل مقابل ومناظر له.

هذا وينبغي أن نشير أيضا إلى أن بنية الزمرة هي أهم بنية تُفسَّر على أساسها عدة ظواهر وخاصة الظواهر البيولوجية والفيزيائية وغيرها وهي أساس النظريات الخاصة باكتساب المهارات وقد بيّن أكثر من واحد من العلماء في الإبستيمولوجية - ومنهم جان بياجي- أن الاكتفاء في التفسير على الصفات الذاتية هو توقف وتقلص للبحث وكذلك الاقتصار على العلاقات الاندراجية (Intensive Relations) مثل العلاقات القائمة بين الفئات وترك العلاقات المتخطية (أو الانبساطية Extensive = Relations.) مثل علاقة تطبيق مجموعة على مجموعة (أو حمل الشيء على الشيء يجامع بينهما في القياس العربي).

ثم الجدير بالملاحظة أيضا هو أن لكل مستوى من مستويات اللغة زمرته وقسمته التركيبية.والذي أتمناه هو أن نتعاون معشر الباحثين العرب لإيجاد ما يناسب هذه القسمة التركيبية الخاصة باللغة من البرمجيات الناجعة وبالله التوفيق.

عن لغة الطفل العربي المعاصر*

أ.د/عبد العزيز المقالح
الجمهورية العربية اليمنية
عضو المجمع اللغوي – القاهرة.
عضو المجمع اللغوي – دمشق.

مقدمة:

في كتابي: "الوجه الغائب.. دراسات عن أدب الطفل العربي، دار المسيرة.-بيروت، الطبعة الأولى، عام 1985م" تناولت جوانب من معاناة الطفل في هذا الوطن الكبير الذي لم يستقر على حال منذ وطأت أرضه أقدام المحتلين الأجانب.وحين أهدت قراءة الكتاب في طبعته الثالثة لم أجد أن شيئا في الواقع العربي وفي واقع الطفل خاصة قد تغير أو أدركه قدر من التطور الذي تفرضه سنة الحياة وضرورة التحولات التي هي من طبيعة البشر الأحياء الحالمين بالجديد والأجد.

إذ ما يزال الطفل يعاني من خلال محاولاته الدؤوبة لاكتساب لغته الأم بالطرق التقليدية المتوارثة عبر الأجيال، كما أن محاولات التجديد في مناهج التلقي ماتزال تتعثر، أم عن حال الكتاب المدرسي وهو دليل الطفل لغويا ومعرفيا فحدث ولا حرج، إذ مايزال كما كان في أربعينيات القرن وخمسينياته إن لم يكن قد تدهور وناله الكثير من الضعف و الارتجال.

---

*بحث معد للمشاركة في الدورة(82) لمجمع اللغة العربية بالقاهرة مارس 2016م

في هذا البحث المتواضع، وفي إطار المحور الأول من المحاور المقترحة من مجمعنا الرشيد للدورة(82) حاولت أن أسهم قدر الاستطاعة بما ظننته مفيدا ومتصلا بموضوع المحور الأول عن الطفل ولغته.ومن الله تستمد العون و التوفيق. 27 /01 /2016م.

1 -واقع الطفل العربي:

" الطفل هو الرجل" تعبير موجز ودقيق عما سيكون عليه طفل اليوم في المستقبل القريب لكن، وحتى يتسنى لهذا الطفل أن يكون رجلا، لا بد أن تتوفر له الرعاية الكافية من حاضنات ثلاث، وهي:

أولا: البيت.

ثانيا :الشارع.

ثالثا: المدرسة.

والسؤال هو: هل يتوفر في هذه الحاضنات العربية المستوى المطلوب لمساعدة الطفل على اجتيازه مرحلة الطفولة و الانتقال إلى الرجولة كما ينبغي أن تكون صحيا وثقافيا ونفسيا؟

وانطلاقا من الظروف العربية الراهنة فإن الإجابة عن سؤال مهم كهذا ستكون بالسلب لا بالإيجاب مع استثناءات لا تكاد تذكر في بعض البيوت وبعض المدارس. وهي إجابة صحيحة على كبار المسؤولين العرب أن يتوقفوا عندها طويلا فهم وحدهم المكلفون و القادرون على إنتاج نشء واع وقادر على تحمل المسؤولية في المستقبل ومواجهة التحديات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية.كما على القادة التربويين أن يقفوا عند تلك الإجابة وأن يتساءلوا بمصداقية وأمانة عن دور المدرسة وهل تؤدي الحد الأدنى من المهمة الموكلة إليها إبتداءا من المعلم وانتهاء بالمناهج التي تعبرعن روح العصرواحتياجاته وما تنتظره الشعوب على أيدي أبنائها في الحاضر و المستقبل.

ولا يصح ونحن نتحدث عن واقع الطفل العربي وأحلامنا العالية في الدور الذي ينتظره أن لا نقرأ هذا الواقع كما هو في غالبه الأعم، حيث يلعب الفقر من جهة و التخلف الثقافي و العلمي من جهة ثانية دورا مفزعا يجعل من الصعب على طفل يعاني من مستوى المعيشة المتدني في أسرته أن يحقق بعض ما يتحقق لأمثاله ليس في الدول المتقدمة بل في الدول المسماة بالنامية التي نجح بعضها في تأسيس قاعدة علمية عامة يقوم عليها كيان التعليم وإعداد أجيال قادرة على الوفاء بالتزاماتها نحو أوطانها ومواطنيها.وفي شرق آسيا نماذج جيدة وصالحة للاقتداء، فقد تخلصت تلك الشعوب مما تراكم في حياتها من غبار التخلف والاعتماد على الغير وبدأ أبناؤها يخوضون عمليات التحديث و التغيير في أكثر من ميدان واتجاه، واستطاعوا أن يضمنوا لبلدانهم المكانة اللائقة بها بين بقية البلدان و الأمم.

وكان وما يزال علينا أن نتنبه إلى أن ما حدث في تلك الشعوب لم يكن ضربة حظ أو بفعل خلطة سحرية اكتشفها قادة تلك الشعوب في كتاب من كتب حكماء الشرق القديم، وإنما جاء ذلك النهوض المدهش من خلال التخطيط المدروس بعناية فائقة ومن اعتماد صارم لمناهج التربية وقوانين الرعاية للطفولة و الأطفال و النظر إلى الزمن القادم من خلال ما يمكن إبرازه و التركيز عليه في مواهبهم الخلاقة،ولا غنى لأقطارنا العربية من استيحاء تلك التجربة و الأخذ بما أنجزته من أساليب مكنت الأجيال الجديدة من تجاوز الأخطاء و الشروع في بناء حضارة جديدة على أنقاض حضارات بائدة شكلت نموذجا في عصرها وأن الأوان لكي تتجدد وتأخذ ملامح العصر الجديد وتعبر عن تطلعاته و ثقافته وطموحاته.

وسؤال آخر يأتي في هذا الصدد هو: هل صرنا نحن العرب جاهزين للتغيير و الإفادة مما حققه الآخرون الذين كانوا إلى وقت قريب في حال

يشبه حالنا أو أسوأ منه؟ وفي اعتقادي أنه بعد أن أوصلنا "الطناش" إلى ما نحن فيه من تخلف وسوء منقلب علينا أن نبدأ من الصفر مستوعبين تجارب الآخرين ومتجاوزين الأخطاء و المحاذير التي كشفت عنها محاولاتنا السابقة في هذا الصدد وغيره ومن أهم ما يتعين علينا في هذا الصدد هو الاهتمام الجاد بالطفل الذي سيغدو رجلا فنتنبه إلى ما يتعين علينا من حرمان منقطع النظير في غذائه وكسائه وفي فقدانه لأبسط معاني التنشئة السليمة، وهذا الطفل الذي يمثل ملايين الأطفال هو الذي يراد منه أن يحمل علم التقدم و التطور ولن يكون غريبا إذا انتهنا –من واقع التجربة الشخصية- إلى أن 90 % من مدارس الإعدادية و الثانوية في قطر عربي (لا أود ذكر اسمه) بلا مراحيض ولم تعرف الكهرباء.

وفي مناخ عربي هذه صورته وهذا واقعه، كيف لنا أن نتحدث عن لغة الطفل قبل أن نتحدث عن الخبز الذي يتناوله الطفل، وعن الماء الذي يشربه، والبيئة التي يتحرك في إطارها؟ وكلها لا تشجع بحال على إعداد إنسان المستقبل.

وحتى لا استرسل في وصف قتامة واقع الطفل العربي أعود قليلا إلأى ما كان عليه الوضع في بعض الأقطار العربية التي كنا نصفها نحن أبناء الأقطار النائية بالمتقدمة، فقد كان التعليم فيها متطورا وحديثا إلى حد ما، وكان الأطفال يجدون رعاية خاصة وكانت المدارس تقدم للتلاميذ وجبة أو وجبتين تنمي أجسادهم وعقولهم بحيث يمكن للأطفال الذين لا يجدون غذاء كافيا في منازلهم أن يجدو في هذه الوجبات تعويضا مناسبا، لكن هذه الحال لم تدم فقد تزايد عدد التلاميذ و تزايدت إعداد الفصول وتم إلغاء التغذية المدرسية وبدأ مع إلغائها تدهور مستوى التعليم وبدت على التلاميذ حالات من الشحوب و الهزال وتحقيق بذلك ما يشبه العدل في الحرمان من ذلك بين تلاميذ مدارس أغلب الأقطار العربية.

2 -الطفل و اللغة:

يكتسب الطفل السوي لغته الأولى من أمه هذا الملاك الذي تتسرب كلماته المصحوبة بالمناجاة الحنون مع الحليب إلى روح الطفل وبدنه.ثم يأتي دور أفراد عائلته ومن ثم أقرانه في الحارة و الشارع ويتجسد هذا التأثير عن طريق المحاكاة و الاجتهاد في تقليد طريقة النطق.ويشير أحد الكتاب المهتمين بلغة الطفل إلى أهمية دور المحاكاة في إجادة النطق واكتساب المفردات معتمدا في ذهب إليه على بعض التجارب التي توصل إليها عدد من علماء اللغة الأجانب، مستظهرا على ذلك بما أورده في إحدى الفقرات من كتابه تقول:" وتشمل المحاكاة النشاطات اللغوية و الحركية وكثيرا من سمات الشخصية.ويرى : بريبر" أن المحاكاة أهم عامل في تعلم اللغة عند الفرد وأنها المرحلة الحساسة في هذا التعلم.

ويرى" اشترن" : أنها العامل الأول الأكبر في تعلم اللغة.ويرى البعض أن المحاكاة تبدأ في الربع الأخير من السنة الأولى أو آخر السنة الأولى وأوائل السنة الثانية.أما " كاول بوهلر " فيرى أننا لا نستطيع تمييز ظهور المحاكاة إلا في منتصف السنة الأولى إلا أن البعض يرى أن المحاكاة قد تبدأ بعد الشهر التاسع[1].

وأيا كان الاختلاف الدائر بين علماء اللغة حول الفترة التي يبدأ معها الطفل السوي في محاكاة الآخرين بوصفها خطوة أولى نحو اكتساب اللغة فإنه عندما يدخل إلأى المدرسة يكون قد اختزن عددا ليس بالهين به من المفردات تمكنه من فهم الدروس الأولية تلك التي يتلقاها التلاميذ في الحضانة أو الفصول الأولى من المدارس الابتدائية.وهكذا ما يكاد يتجاوز مرحلة الطفولة حتى يكون قد استوعب قدرا من المفردات تؤهله للتفاهم مع مجتمعه كأي واحد من أفراده الذين يتكلمون لغة واحدة ويعبرون بها عن احتياجاتهم اليومية وعن أحلامهم و أشواقهم،ومهما اختلفت

العادات و التقاليد و الثقافات فإن تلك –في تصوري-هي المعالم الرئيسية للمرحلة التي لا بد للطفل من أن يجتازها في بداية حياته لاكتساب لغته القومية وامتلاك أول قواعدها بالتدريج عبر مراحل الطفولة التي يجتهد البعض إلى تقسيمها إلى أربع مراحل أو أطوار هي:

أولا: مرحلة الميلاد.

ثانيا: مرحلة الطفولة المبكرة.

ثالثا: مرحلة الطفولة المتوسطة.

رابعا: مرحلة الطفولة المتأخرة[2].

وكثيرة هي الوسائل التي تساعد الطفل على اكتساب لغته وزيادة حصيلته من مفرداتها ومن أهم تلك الوسائل " الحكاية" سواء منها ما يروى أو يقرأ، فالطفل كما يثبت الواقع وتؤكده الدراسات العلمية يقبل على الحكاية يشغف ويحاول أن يحتفظ بتعابيرها البسيطة و بمفرداتها التي ستزيد من مخزونه اللفظي، وتنمي ثروته اللغوية وقدرته التعبيرية مثل الحكاية، القصائد الشعرية و الأناشيد التي يراعي في كتابتها سن الطفل ومستوى وعيه، وسنتوقف بداية عند تأثير الحكاية في لغة الطفل العربية بالكثير من الحكايات المؤلفة عربيا و المترجمة عن اللغات الأخرى، وقد كان المرحوم **كامل كيلاني** أول كاتب عربي أعطى لثقافة الطفل اهتماما خاصا وأمده بوفير من الحكايات المبسطة و المختارة من عيون الأدب العربي و الغربي ووضع بين يديه ترجمات باللغة العذوبة لنماذج من المسرح الشكسبيري. ثم اقتدى به آخرون من الكتاب العرب الذين قدموا للطفل العربي مكتبة تزخر بالمؤلف و المترجم وفي طليعة هؤلاء الكاتب الراحل عبد التواب يوسف الذي وهب عمره كله للطفولة و الأطفال ولسد النقص القائم في حياتنا إزاء الملايين من أطفالنا الذين حرمتهم ظروف التخلف المتلاحقة من أبسط وسائل المعرفة و التثقيف المبكر.

لقد تفوق كاتب الأطفال عبد التواب يوسف على نفسه وعلى غيره في عدد الكتب التي أصدرها عن الأطفال و الطفولة، إذا بلغت في آخر إحصاء إلى ألف كتاب أغلبها من تأليفه و القليل منها فقط من ترجمته. وفيها الديني و التراثي و التاريخي و العلمي بالإضافة إلى الخيالي والخرافي.وأعطى اهتماما خاصا بحياة الأنبياء و السير الشعبية وقصص الحيوانات. كل ذلك لكي يتمسك الطفل العربي بتاريخه و ليتمكن من إتقان لغته و الانفتاح على موروثها العلمي و الأدبي و الفكري. بل إننا نجد هذا الكاتب في واحدة من أهم الدراسات تحت عنوان " **خريطة أدب الأطفال**" يرفع صوته صارخا عن ضآلة ما ينشر في الوطن العربي للطفل مقارنة بما ينشر في الدول الأخرى حيث يقوا:" إن كم الكتب الأدبية الصادرة للأطفال ضئيل إلى حد بعيد، ولا يكاد يذكر، وإن العناوين الجديدة قليلة إلى درجة مزعجة، وعدد النسخ المطبوعة من هذه العناوين ما بين 3000 و5000 نسخة، على أن عدد الأطفال القراء على أربعين مليونا، متناثرين في القرى و البوادي، قد لا يصلهم كتاب واحد...ولدينا من الإحصائيات ما يؤكد المجاعة الأدبية التي يعيشها طفلنا العربي، إذ يصدر في أمريكا قرابة خمسة آلاف كتاب سنويا، بينما الوطن العربي الذي لديه تقريبا عدد أطفال أمريكا فهو لا يصدر أكثر من 5 % من هذا القدر. وأمة لا تقرأ لا تستهلك من ورق الطباعة أصلا إلا 10 % مما تستهلكه بلجيكا التي لا يزيد عدد سكانها عن 10% من الأمة العربية"[3].

ويأتي الاهتمام بتوسيع مكتبة الطفل العربي من أهمية دورها في تأسيس المعرفة الشاملة وزيادة الحصيلة اللغوية ليس لدى الأطفال فحسب، وإنما لدى الكبار أيضا. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أمة "**اقرأ**" تكاد لا تعرف القراءة قياسا بالأمم الأخرى كما لم يأخذ الكتاب مكانته بعد حتى في صفوف أولئك الذين نالوا تأهيلا جيدا في الجامعات و المعاهد و الدليل

على ذلك الإشارة في الفقرة السابقة التي تشير إلى أن ما يطبع في الوطن العربي من كتب في مختلف المعارف لا يشكل سوى نسبة ضئيلة بالقياس إلى عدد المؤهلين للقراءة و القادرين على متابعة كل ما ينشر.

3 -القصائد و الأناشيد:

من الواضح أن المراد بالقصائد و الأناشيد التي سيتم الحديث عنها في هذا الحقل البحثي هي تلك التي يكتبها الشعراء للأطفال وتساعد على تنمية لغتهم و التطوير في تعابيرها. وكثيرا هم الشعراء المعاصرون الذين كتبوا هذا النوع من الشعر لكن القلة منهم هي التي عرفت كيف تنفذ إلى وعي الطفل وتتمثل استعداده للتفاعل مع ما يكتبه من قصائد و أناشيد، وقد كان أمير الشعراء أحمد شوقي أول من فتح باب هذا النوع من الكتابة كما تجلى ذلك في عمله الشعري المسمى" ديوان الأطفال" وإن كانت قصائده القائمة على الحكاية و المتضمنة نماذج من الحكمة و الإرشادات التربوية و الأخلاقية صعبة التلقي لدى الأطفال في سنوات عمرهم المبكرة، إلا أنه يحسب له فضل السبق في هذا المضمار إذ كانت تجربته بمثابة المقدمة لعدد من الشعراء الذين جاءوا من بعده وعرفوا كيف يردمون الهوة التي حالت دون فهم الأطفال للغة قصائده رغم محاولته تبسيطها.

وسأكتفي هنا بالوقوف عند نماذج محدودة لشاعرين كبيرين هما سليمان العيسى الذي وهب جانبا كبيرا من حياته وشعره للطفولة والأطفال، وجودت فخر الدين الذي بدأ بعد أن وصل ذروة نضجه الشعري يكتب قصائد ومقطوعات يجعل الطفل منذ المراحل الأولى لطفولته يدرك أهمية اللغة و يتحسس جماليات معانيها، وكثيرة هي الأعمال الشعرية التي أنجزها الشاعر الكبير **سليمان العيسى** ومنها ماهو للأطفال الصغار وللصبيان وما هو للفتيان، وفي كتابه" كلمات خضر للأطفال" يطلعنا بمقدمة على درجة كبيرة من الأهمية يشير فيها إلى دور الكلمة في تفتح

ذهن الطفل على جمل وواقع في الحياة و" أن الكلمة الحلوة الجميلة التي نضعها على شفتيه هي أثمن هدية نقدمها له، لكي يحب الأطفال لغتهم، لكي يحبوا وطنهم،لكي يحبوا الناس، و الزهر، و الربيع و الحياة"[4].

وفي هذه المقدمة نفسها يضع الشاعر الكبير قواعد أربع لما يكتبه من شعر للأطفال هي، بعناوينها و بعد حذف تفاصيلها، على النحو الآتي:

1)اللفظة الرشيقة الموحية.

2)الصورة الشعرية الجميلة.

3)الفكرة النبيلة الخيرة.

4) الوزن الموسيقي الخفيف الرشيق[5].

هذه القواعد الذهبية الأربع بتفاصيلها الأكثر توضيحا ودقة تصلح منهجا لكل شاعر موهوب يريد أن يشارك في إثراء مكتبة الطفل العربي التي ما تزال حتى الآن تعاني من الفقر، ويعاني معها الطفل مجاعة روحية وثقافية في وقت يمكن فيه أن يعيد الشأن الثقافي ميسورا لكل الأجيال لو وجد التنظيم وحضرت المسؤولية، وسيجد الباحث صعوبة في ما يختاره من قصائد و أناشيد سليمان العيسى المكتوبة للأطفال وبما أن كتاب " كلمات خضر للأطفال" بين يدي الآن فإن أنشودة" الأرجوحة" تشدي لاقتطاف أربعة أبيات منها هي :

طيري بنا طيري مثل العصافير

يا مركب الأحلام يابسمة النور

طيري إلى الوراء طيري إلى الأمام

أحلى من الأقسام بين الأزاهير[6].

وهذه أنشودة أخرى بعنوان " **فلسطين داري**" و يبدوا أنها كانت شائعة في أكثر من مدرسة عربية:

فلسطين داري ودرب انتصاري

تظل بلادي هوى في فؤادي

ولجأ أبيا على شفتيا

وجدة غريبة بأرضي السليبة

تبيع ثماري وتحتل داري(7).

ومن أنشودة "العيد" نقتطف هذا المقطع:

ثياب جديدة وجوه سعيدة

أقبل ماما أقبل باب

وهتف عيد سعيد سعيد(8).

إن هذا المستوى من اللغة البسيطة و العميق في الوقت نفسه يمكن الطفل من التقاط المفردات بسهولة، وهذا ما تسعى إلى تحقيقه القصائد و الأناشيد التي تراعي لغتها وموضوعاتها إدراك الطفل في سنوات عمره المختلفة.

وثمة نماذج أخرى من ديوان " الأطفال" للشاعر جودت فخر الدين الشاعر الذي استطاع أن يحقق للنص الشعري المكتوب للأطفال نقلة نوعية يكون معها النص أقرب إلى فهم الطفل وأكثر تفاعلا مع لغته المحدودة:

في حكمة الكبار

الجار قبل الدار

وبيتنا بعيد

منعزل وحيد

في قرية وديعة

ربوعها بديعة

جيراننا الطيور

و النبع والزهور[9].

يكاد السطر أو الشطر في هذا النص يتألف من كلمة واحدة فقط، وفيه تسهيل للطفل على النطق من ناحية و إحساسه بالإيقاع من ناحية ثانية.

وهذا التصرف يشكل –كما سبقت الإشارة- خطوة تطويرية في مجال الشعر الخاص بالأطفال، وتتعزز هذه التجربة في أكثر من نص منها ما جاء:

في الساحة الكبيرة

نافورة غزيرة

ترسم في الفضاء

شجيرة من الماء

يهفو لها الحمام

وتخفق ال أنسام[10].

وكل محاولة جادة في هذا المجال تعمل على تقريب الطفل من لغته ومن موضوعات عصره وتحيطه بألوان من المعرفة الأولية بالأفكار و الأشياء الموجودة في عالمه الصغير:

عصفورة من ورق

لونتها بالأزرق

أطلقتها للأفق

هوت ولم تزقزق[11].

كما نجد هذا الديوان قصائد يتحدث فيها الطفل عن لغته العربية وإعجابه بأنغامها وأحلامها واعتزازه بأمجاده وبموروثها الأدبي و الفكري

والعلمي،ولا حد للأثر الذي تتركه مثل هذه النصوص في نفوس الأطفال وما تنطوي عليه من إيحاءات لا تحمي تظل عالقة بالفكر و الوجدان إلى آخر العمر.وهذه الإشارة تحض على عدم الاستهانة بما يكتب للطفل من أدب يلتزم البساطة التي هي أصعب من التعمق على حد ما ذهب إليه توفيق الحكيم عندما بدأ في وقت متأخر من حياته يسجل بعض الحكايات للأطفال [12].

4 -التلفاز و مجلات الأطفال:

عرف الإنسان المعاصر أشكالا من وسائل الإيصال كالإذاعة والصحافة و التلفاز لكن هذا الأخير يبقى أكثرها تأثيرا واستحواذا على المشاهد فقد جمع بين الصوت و الصورة، بين اللون و الضوء، بين الحركة و الكلمة، وبذلك تفوق على كل الوسائل وصار تأثيره أعمق وأقوى لا سيما على الطفل الذي يقف إزاء ما يثبته من برامج و مسلسلات مبهورا ومستمتعا.

وقد نجحت هذه الوسيلة الإيصالية في استغلال كل الطاقات الفنية في تقديم الصورة الواقعية المبسطة و المثيرة للدهشة عن الإنسان والأرض والجبال و الشمس و البحر جنبا إلى جنب.كم هائل من الحكايات الخرافية المتخيلة ما يجعل الطفل مشدودا إلى هذه الوسيلة بكل حواسه ملتقطا قدر إمكانياته الكلمات المنطوقة مرتبطة بواقعها وأحداثها مكررا لها ومبتهجا بقدرته على امتلاكها في صيغتها العربية الفصحى: الولدان يلعبان. كتابان اثنان...إلخ.

ويلاحظ أن بعض المعنيين بالطفل وثقافته لا يفضلون أن يرى الطفل المسلسلات على التلفاز لما في ذلك من حد لتصورات الطفل ومحاصرة قدراته التخيلية عن " **التطواف**" بذهنه ورسم صور رمزية تختلف عما تقدمه وسائل الإيصال المرئية من مناظر ومواقف تحد من طاقة التخيل وهي ملاحظة لا تخص الأطفال فقط وإنما الكبار أيضا الذين كانوا عن

طريق السماع وحده يتخيلون أماكن وأشخاصا كل حسب قدراته الذهنية واتساع مساحة الخيال عنده.ومع ذلك يبقى للتلفاز تفوقه على كل وسيلة إيصال تحاول منافسته واستقطاب مزيد من الجمهور الذي يتزايد أعداده مع مرور الزمن وفي المقدمة الأطفال الذين يحبون كل ما يقدمه ويتفهمون عن طريق حاسة البصر عوالم على درجة عالية من البراعة في التخيل.

كما يلاحظ آخرون خطورة ما يقدم في التلفاز من برامج تتناسب مع أهداف المجتمع العربي وقيمه من مسلسلات أجنبية تصل إلى 90% مما تقدمه التلفزة العربية وما يصاحبها من أخطاء في النطق والأداء وهي تؤسس للغة تنافس لغة المدرسة وتبرزها. إن القدوة تكمن في "رامبو" و"غرانداير" و" فارس الفضاء"...إلخ، ومشاهد العنف المتبادلة بين "توم" و"جيري" بداية، والواقع الضاغط على الطفل نفسه، وما يسببه له من قهر متتابع، يضعه في عالم التلفاز هذا ويجعله مسكونا بمفرداته العنيفة"(13). حتى لقد وصل الحال بإحدى التربويات الأجنبية إلى التساؤل:" هل هذا تلفزيون أم مخدرات؟ وانتهت إلى انه مخدرات تعود الطفل على الاسترخاء العقلي، وتبعده عن التركيز و الفهم و الخبرة الخيالية".

هذه السلبيات و سلبيات أخرى ليس هنا مجال الحديث عنها تضاعف من مسؤولية القائمين على هذه الوسيلة التي يفوق تأثيرها كل وسائل الإيصال التي فقدت بريقها وأهميتها بهد ظهور التلفاز.

5 -مجلات الأطفال:

أما عن مجلات الأطفال وهي المصدر الثاني المهم بالنسبة للأطفال بعد التلفاز طبعا، فإن دورها في الوطن العربي خاصة محدود و لا يتعدى انتشارها بعض الأحياء أو بالأحرى بعض البيوت في الأحياء المتقدمة، ورغم موجة التنافس التي بدأت منذ سبعينيات القرن الماضي لدى بعض الأقطار العربية في إنتاج مجلات تعنى بثقافة الأطفال و تربيتهم وإعطائهم

جرعات لغوية تساعدهم على الاهتمام باللغة القومية" لغة الأم" فإن ذلك التنافس بدأ في الفتور ثم الهبوط، ولم يبقى في الوطن العربي كله من مجلات الأطفال الجادة سوى عدد محدود لا يوازي عدد أصابع اليد الواحدة و بعض المجلات –إن لم تكن كلها- لا تخاطب أطفال المرحلة الأولى أو الثانية من مراحل الطفولة وإنما تتجه إلى أطفال المراحل الأخيرة بما يستخدمه كتابها من ألفاظ وتعابير تعجز لغة الطفل عن استيعابها و الإفادة منها، وقد يكتفي بعض الأطفال بتقليبها لتأمل الرسوم ليس غير.

لقد تكاثرت الإشكاليات المتعلقة بالطفل عامة و بالطفل العربي خاصة وليس موضوع لغة الطفل الإشكالية الوحيدة فقد برزت-وفي الوقت الراهن بوجه أخص- أمور أخرى بالغة التعقيد، منها على سبيل المثال" الكتاب المدرسي" هذا الثابت الجامد الذي تغيرت الدنيا و لم يتغير بل ظل على ما كان عليه منذ عقود بشكله و لغته و مضامينه المتحجرة و ما يمثله من هوة سحيقة تفصله عن الطفل و تفصل الطفل عنه، ذلك أن إعداد هذا الكتاب ظل موكولا إلى بعض المدرسين من محدودي الثقافة الذين لا علاقة لهم من قريب أو بعيد بعلم النفس، الذي صار أساسا في معرفة نفسية الطفل ومدى إدراكه للمواد المعدة لفهمها أو حفظها.ولعله من الخطأ النظر إلى الطفل كما لو كان عجينة في إمكان أيدينا أو أصابعنا أن تشكله وفقا لرغباتنا نحن أو لما يريده واضعو الكتاب المدرسي وبما يجمعون فيه من غث الكلام المصحوب بمعلومات أكل الدهر عليها وشرب.

ومنذ وقت قصير لفت انتباهي مقال يتصدر مجلة العربي الشهيرة بعنوان" كتاب الطفل...وكتابة المستقبل!" يتناول فيه كاتبه مشكلة المتلقي الصغير وهو الطفل مع الكتاب المدرسي ويرى أننا" في عالم سريع التغير، تتوارى فيه الأحلام القديمة الكبيرة، يفوتنا أن نكرس الحاضر لتأسيس أحلام جديدة ممكنة التحقيق في المستقبل، وكتاب الطفل العربي هو أحد

الممكنات التي تبدو ضئيلة للبعض وهامشية، لكنها بلا جدال ذات مردود مستقبلي هائل"(14).وبدون إصلاح الكتاب المدرسي من نواح عديدة لن يتغير شيء في حياتنا، ولن يتمكن رجل المستقبل،الذي هو الآن طفل، من عبور الهوة السحيقة التي تفصلنا عن الآخرين، ومادام" الكتاب المدرسي أصبح عبئا على عقل الطفل وليس وسيلة لتنمية عقل هذا الطفل"؟كما يؤكد صاحب المقال فإن شيئا جديدا لن يحدث لا على مستوى اكتساب الطفل للغته العربية كما ينبغي، ولا على مستوى التحصيل العلمي و الإبداعي.

الهوامش:

(1)عبد الكريم الحلابلة، عفاف اللبابيدي: تطور لغة الطفل، دار الفكر-عمان، ص31.

(2)د.هادي الهيتي: ثقافة الأطفال، عالم المعرفة، العدد123:ص31.

(3)ثقافة الطفل واقع وآفاق، مجموعة دراسات لعدد من الكتاب: دار الفكر دمشق، دار الفكر المعاصر-بيروت، ص55.

(4)سليمان العيسى: كلمات خضر للأطفال، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية-دمشق،2005م، ص7.

(5)نفسه: ص9.

(6)نفسه:ص22.

(7)نفسه:ص30.

(8)نفسه:ص40.

(9)د.جودت فخر الدين:ثلاثون قصيدة للأطفال، دار الحدائق-بيروت، فائزة بجائزة الشيخ زايد بن سلطان، عام1914م.

(10)نفسه:ص10.

(11)نفسه:ص18.

(12)ثقافة الطفل واقع وآفاق،ص157.

(13)ثقافة الطفل، ص 151.

(14)د.سليمان إبراهيم العسكري: افتتاحية مجلة العربي، العدد(533) عام 2003، ص8.

المصطلح العلمي بين الواقع و التوحيد

أ.د.وفاء كامل فايد
عضو مجمع اللغة العربية
الجمهورية العربية المصرية

تمهيد:

حين جاء الإسلام ونشأت العلوم الدينية استخدم كل منها مصطلحات خاصة به: فكان للفقه مصطلحاته، وكذلك للتفسير والحديث وعلم الكلام، كما استخدمت العلوم الأخرى لغتها الخاصة مثل النحو و العروض، والكيمياء والطب، والفلك والطبيعة.وتطورت المصطلحات بمرور الزمن إلى أن اكتملت لغة العلوم في الإسلام في القرن الرابع الهجري: فقد استقرت المصطلحات وتوحدت في الأقطار المختلفة، وسجل بعضها في معاجم خاصة مثل: مفاتيح العلوم للخوارزمي، والتعريفات للجرجاني، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي.

ثم مرت الدول العربية و الإسلامية بفترة ركود وضعف،ركد فيها البحث العلمي وجمدت مصطلحاته وتحجرت لغته، فصار العلماء يرددون المصطلحات القديمة دون تطوير أو تجديد، مما بعد بها عن لغة العصر وعمق الفجوة بينها وبين مدلولاتها، فصارت لغة العلوم معقدة غير قريبة من الأفهام.

وجاءت النهضة العلمية الحديثة منذ القرن التاسع عشر، فحاول رفاعة الطهطاوي في كتبه أن يواجه مهمة تطويع اللغة العربية للأفكار والتصورات الجديدة،"وأن يقوم بوظيفة (مجمع لغوي)، يضع للمعاني المستحدثة-أو يشتق لها- مقابلات عربية، أو يعرب ما يضطر إلى تعريبه

من مصطلحات جديدة. و بهذا وضع الأساس الأول في التطوير الحديث للغة العربية، وشق الطريق لمن جاء بعده من علماء اللغة والمترجمين إليها من اللغات المختلفة، ليزيدوا في ثروتها، ويعينوها على الوفاء بمقتضيات النهضة الحديثة[1].

وحاول العلماء من بعده أن يصلحوا من شأن لغتهم، ونشطت حركة الترجمة.وكان لخريجي مدرسة الألسن الفضل في ترجمة مئات الكتب إلى اللغة العربية.وكان من أعظم المترجمين أثرا فتحي زغلول وهو من رجال القضاء، وترجم(أصول الشرائع) لبنتام، كما ترجم كتب ديمولان ولوبون الاجتماعية[2].

ونلحظ أن المترجمين قد نقلوا العلوم من الغرب دون أن يرجعوا إلى التراث العربي، لكي يوائموا وينسقوا بين المصطلحات العربية القديمة وما جاء في ترجماتهم من كلمات، حاولوا بها تأدية المعاني التي عبروا بها عن العلوم الحديثة.

كما نجد أن اللغة العربية استطاعت مسايرة التقدم العلمي في هذا القرن، فقامت بهذا الدور في المدارس المتخصصة، مثل مدارس العلوم العسكرية والهندسية والطبية[3]والزراعية. وحين اقتضى الأمر الاستعانة ببعض علماء فرنسا - مثل الطبيب (كلوت بك)، والدكتور (فيجرى) علم النبات - نقل المترجمون مؤلفاتهم إلى العربية، كما حضروا معهم في قاعات الدرس لترجمة دروسهم إلى اللغة العربية[4].

يقول الأستاذ محمد خلف الله أحمد في هذا المعنى:

"مصر عالجت هذا الموضوع في النصف الأول من القرن التاسع عشر، إذ جيء بالعالم الأجنبي ليدرس، وجيء معه بعالم أزهري، وبين الاثنين مترجم ينقل عن الأجنبي إلى الأزهري، وعن الأزهري إلى الأجنبي، وبذلك بدئ فعلا بوضع المصطلحات العلمية الأجنبية بلغة عربية[5].

وفي القرن العشرين ازدادت الحركة العلمية تقدما. وكان على العلماء واللغويين متابعة سير العلم في تقدمه وازدهاره، فعكف كثير من العلماء على وضع معاجم لمصطلحات العلوم[6].وكثرت الترجمات من اللغات المختلفة. وخطت العلوم العربية في النصف الثاني من هذا القرن خطوات كبيرة، حاولت بها إحياء أمجاد الماضي، ومتابعة التقدم العلمي الحديث. وأخذت تكون من جديد لغتها الخاصة، مستعينة بالدراسات الجامعية من ناحية، وبالمجامع اللغوية و العلمية من ناحية أخرى[7].

موقف المجامع من وضع المصطلحات:

وقع على المجامع اللغوية العربية عبء إيجاد مصطلحات جديدة للعلوم الحديثة، تعبر في دقة عن المعنى العلمي المقصود بها، وتكون صحيحة من الناحية اللغوية، متمشية مع روح لغتنا العربية.مع التنسيق بين المصطلحات القديمة و الحديثة، ومحاولة توحيد المصطلحات القائمة، سواء بين علماء القطر الواحد أو بين الأقطار المختلفة. واستدعى ذلك دراسة المصطلح عند المتخصصين، والرجوع إلى رأيهم فيما اختاره من كلمات عربية مناسبة له، ثم مراجعة ما ورد في الكتب العربية القديمة والحديثة من كلمات موافقة له، سواء أكانت هذه الكتب لغوية أو متخصصة.فإذا وجدت فيها كلمة مؤدية للمعنى الاصطلاحي، ومتفقة مع الذوق اللغوي، قبلت مبدئيا[8]، على ألا يتخذ في قبولها قرار حاسم إلا بعد عرضها فترة محددة على الأقطار العربية المختلفة، لمعرفة الآراء المتباينة فيها، وخاصة في الجهات التي تتعامل مع المصطلحات كالمجمع العلمي العراقي ومكتب تنسيق التعريب بالرباط. ثم بع إقرارها من المؤتمر السنوي للمجمع المصري، الذي يمثل فيه العلماء العرب.

وكان المجمع اللغوي المصري أسبق المجامع العربية إلى بحث المصطلحات(9)، وكرس جزءا كبيرا من وقته لها، ولم يكن سبيل أمامه من اشتقاق ونحت و تعريب. وأجاز القياس على ما لم يقس من قبل، واقتصر الأمر فيه على السماع. وكان المجمع حذرا عند اللجوء إلى النحت، فقد تكون الكلمة المنحوتة أكثر غرابة،

وأبعد عن المعنى من الكلمتين الأصليتين.

ووضع المجمع في أوائل دوراته الطريقة التي اتبعها عند وضع هذه المصطلحات وهي:

" التنقيب عنها أولا في كتب اللغة و العلم القديمة، فإذا وجدها اعتمدها، وإذا لم يجدها لجأ إلى الاشتقاق أو المجاز أو النسب أو التصغير، أو نحو ذلك من القوانين اللغوية، حتى تكون ثورة اللغة مستمدة من أصولها و مواردها، فتستغني بها عمن سواها، وتستطيع أن تثبت أمام جيوش الألفاظ الأجنبية التي تحاول أن تغزوها، لتحل محلها بعد حين[10].

وفي القرارات العلمية الخاصة بالبنية اللغوية ما يبين حرص المجمع على توسيع محيط اللغة العربية لكي تستطيع التعبير عن العلوم الحديثة ومصطلحاتها. فقد أجاز المجمع الاشتقاق من أسماء الأعيان- بناء على ما سمع من كلام العرب مثل: مذهب ومفضض- فقيل في المصطلحات الطبيعية مثلا: مكهرب وممغنط، وإلي المصطلحات الكيميائية: مملغم ومورنش(اي مطلي بالورنيش).

وأجاز قياسية المصدر الصناعي، وله أهميته في الدلالة على المعاني العلمية، مثل أسماء المذاهب والنظريات مما يختم باللاحقة ism في اللغات الأوربية، فيقال الآن: المثالية و الكانطية[11].

كما أجاز قياسية بعض أوزان المصادر للدلالة على بعض المعاني[12].

وأجاز قياسية أربع صيغ جديدة- بالإضافة إلى صيغ اسم الآلة المعروفة-

للدلالة على أسماء الآلات الحديثة[13].وأجاز أيضا قياسية صيغة (استفعل) للاتخاذ و الجعل[14] تيسيرا للمصطلح العلمي.

وجوز جمع اللفظ المعرب- مثل كيلومتر- وتمييزه، باعتباره كلمة واحدة[15]. وأجاز النسب إلى جمع التكسير مثل أحيائي[16]، و النسب إلى كلمة (كيمياء) باثبات الهمزة[17].وزيادة الألف و النون قبل ياء النسبة للدلالة على الشبيه بالشيء المنسوب إليه كـ: سمسماني وغرواني. وجوز أيضا دخول(أل) على (لا) النافية في مثل : اللاهوائي واللامائي[18]، مما يستخدم في المصطلحات.

قواعد مجمع القاهرة لتنظيم العمل في تعريب المصطلحات:

وضع مجمع اللغة العربية بالقاهرة قواعد علمية يسير عليها عند النظر في المصطلحات، واتخذ قرارات تنظم سير العمل فيها، وهي : استخراج المصطلحات من الكتب العربية القديمة[19]، ووضع معاجم للمصطلحات المستخرجة من الكتب العربية القديمة[20]، وتفضيل المصطلح العربي القديم على الجديد[21]،وتفضيل الكلمة الواحدة على الكلمتين[22]،والاقتصار على اسم واحد لكل معنى[23]،وجمع المصطلحات الفنية[24]،وتخريج كلمات المجمع ومقابلها العامي والأجنبي[25]، وشرح المصطلحات قبل عرضها على المجمع[26]، ثم تعريف المصطلحات قبل دخولها في المعجم[27].كما حدد المجمع طريقة النظر في المصطلحات وتسجيلها ونشرها[28].

ولكي لا تبتعد المصطلحات المجمعية عن الحس اللغوي للجماهير، شكل المجمع لجنة من أعضائه للشؤون العامة، تختص بتنظيم الاتصال بالجمهور، للنظر في الوسائل التي تجعل المصطلحات ذائعة بين الجمهور[29]. كما وافق المجمع على " الاتصال بالوزارات والمصالح

وغرف التجارة، لإرسال مندوب، للبحث معه فيما يستعمل من العبارات والكلمات غير الصحيحة التي تستعمل في هذه الوزارات أو المصالح"[30].

كما طلب المجمع وضع قوائم بالمصطلحات المستعملة في الجامعات والمعاهد والهيئات العلمية و الفنية، في جميع العلوم و الفنون والآداب، مع تحديد معاني هذه المصطلحات تحديدا دقيقا،وذكر مقابلها اللغات الأجنبية التي أخذت منها هذه المصطلحات،وإرسالها إلى المجمع[31]. وأقر عرض الكلمات و المصطلحات سنة على الجمهور بعد إقرارها من المجمع[32]. ويتقبل المجمع في خلال تلك السنة الانتقادات التي يعترض بها على العلماء.

وحرص المجمع أيضا على إضافة المصطلحات المستعملة في الدول العربية إلأى ما وضعته اللجنة المجمعية[33]. كما قرر أن يكلف الأعضاء الممثلون للبلاد العربية بعرض مصطلحات المجمع في كل علم وفن على الهيئات العلمية، وأن يكتب إلى حكومات هذه البلاد لتوافي المجمع بما ينتهي إليه قرار المختصين الفنيين فيما وضعه المجمع من مصطلحات[34]. واهتم بعرض المصطلحات على الوزارات و الهيئات في مصر و البلاد العربية، والانتظار مدة كافية، لتبدي هذه الوزارات والهيئات رأيها، وتوافي المجمع به[35]. وأقر نشر المصطلحات قبل عرضها على مؤتمر المجمع[36]، لتكون موضوعا للبحث و الدرس في المؤتمر التالي.

وحرص على إرسال المصطلحات إلى الجهات العلمية العربية، وإلى أعضاء المؤتمر في الخارج[37]، وطلب إبداء ملاحظاتهم فيها. كما رأى أنه يجوز أن ترسل الترجمة العربية- التي أقرتها اللجان- للمصطلحات العلمية و الفنية، بوصفها مشروعا، إلى الهيئات و المعاهد[38]التي تحتاج إليها. كما رأى أن ينشر المجمع المصطلحات التي وضعها اللجان وأقرها المجلس بحيث تنشر مصطلحات كل علم في نشرة خاصة، توزع مجانا على الأفراد

والهيئات المختصة بهذه المصطلحات وما يقره المؤتمر من هذه المصطلحات يعاد نشره بعد ذلك في مجلة المجمع[39].

وحرصا على نشر المصطلحات العلمية التي يقرها المجمع في تربة خصبة صالحة، غير متأثرة باستخدام سابق لمصطلحات مخالفة، رأى المجمع أن يوجه وزارة المعارف إلى أن يقوم مدرسوها باستعمال مصطلحات المجمع عند التدريس للنشئ: فالتلاميذ يتلقونها بذهن صاف خال، فترسخ في أذهانهم.

توحيد المصطلح العلمي العربي:

العلم معيار حضارة الأمة، ولغته هي الأداة التي تربط فكر العلماء بعضهم ببعض. ولما كان وضع المصطلحات-في أغلبه- عملا من أعمال الأفراد فلا بد أن يحدث اختلاف في اختيار الألفاظ العربية الدالة على معنى علمي واحد، لأن لكل عالم من واضعي المصطلحات رأيه وذوقه الخاص في معالجة المصطلح العلمي الأجنبي. فلغتنا تعاني من أمرينهما: نقص المصطلحات العلمية العربية، وتعدد المصطلحات العربية للمعنى العلمي الواحد.

وبشكل اختلاف المصطلحات العلمية في لغتنا العربية داء يستشري باتساع الثقافة في البلاد العربية، وازدياد عدد المترجمين و المؤلفين بها في تلك العلوم.واختلاف المصطلحات بين الأقطار العربية من شأنه أن يولد الالتباس، وقد يحول دون الاتفاق على مفهوم المراد من المصطلح،وأورد هنا بعض النماذج التي تشير إلى الاختلاف في نقل المصطلحات الأجنبية إلى اللغة العربية في مصطلحات علوم اللغة[40].

نماذج من اختلاف المصطلحات اللغوية بين المترجمين في الأقطار العربية:

المصطلح	المقابلات العربية						
allophone	صوت منطوق	بدل صوتي	متغير صوتي	صورة صوتية	صوتم تعاملي	ألوفون	
Diphthong	مصوت مزدوج	حركة مزدوجة	صوت مركب	صائت مركب			
Linguisties	علم اللغة	علوم اللسان	اللسانيات	علم اللسان	علم اللسانيات	اللغويات	
Morpheme	حريف	صرفم	صرفن	وحدة صرفية	مورفيم		
Phoneme	صويت	صوتم	صوتن	الصوت اللغوي	فونيم	صوتيم	وحدة صوتية
Semantics	علم المعاني	علم الدلالة	الدلالة	علم السيمانتيك	السيمية		
semiotics	علم الرموز	السيميوتية	السيميائية	علم الأدلة	علم العلامات		

أهمية توحيد المصطلحات العلمية العربية:

أدى اختلاف المصطلحات بين الدول العربية إلى جعل الشعور بضرورة توحيد المصطلحات العلمية العربية شعورا عاما نادى به كثير من علماء العربية [41]، فالتوحيد يتيح التعاون العلمي المثمر بين العلماء في المشرق والمغرب العربيين إذ إنه يجعل ما يؤلفه عالم في أحد الأقطار العربية متداولا مفهوما بين باقي الأقطار، يتدارسه أبناء الأمة، ومن ثم تتضافر جهود علماء العربية ويبني الخالف على ما ابتكره السالف، وهو ما يتيح للعلم نهضة كبرى، فتزدهر العلوم بالعربية، وتعود الأمة إلى سالف مجدها.

ويهدف توحيد المصطلحات العلمية و الحضارية العربية[42] إلى إصدار معجم علمي عربي عصري موحد ثلاثي اللغة(فرنسي، انجليزي، عربي) في

كل فرع من فروع العلم، تشترك الهيئات العلمية بالوطن العربي في وضعه. بحيث يشتمل المعجم على المصطلحات العلمية و الفنية والفلسفية و الأدبية و الغوية وألفاظ الحضارة، التي يتفق عليها علماء الدول العربية، وتعرف المصطلحات بالعربية تعريفا علميا مختصرا دقيقا يناسب حجم المعجم.

وعلى علماء الأمة المشاركين في وضع هذا المعجم أن يبذلوا جهودهم كي لا يستغرق إعداده زمنا طويلا.

ولما كان مثل هذا العمل الضخم يتطلب ميزانية كبيرة، كما يحتاج إلى الاستعانة بأكبرعدد من المختصين، الذين ترصد لهم مكافآت مناسبة، لذا فمن الضروري مخاطبة الحكومات العربية، مع رجالات الأمة من أبنائها وحكمها الوطنيين، الذين يؤمنون بأهمية العلم و الثقافة، لكي يتشاركوا جميعا في الاتفاق على هذا المشروع.

فاشتراك الدول العربية في وضع المعجم الموحد لفروع المصطلحات المختلفة يضمن توحيد الجهود العلمية في العمل، واشتراك العلماء في وضعه، وتبادل الآراء حوله، وشرعة إنجازه.كما أن مشاركة الدول العربية بالمال تزيد من إحساسها بالمسؤولية المشتركة و السلة الحميمة اتجاه هذا العمل. وتكون الحكومات العربية- في هذه الحالة- ميالة إلى فرض ألفاظه على مؤلفي الكتب المدرسية، وعلى الدوائر الحكومية والمؤسسات العامة. وحين تشيع هذه الألفاظ سيكون من الطبيعي أن يستعملها الأدباء والإملائيون. بل يجب على الحكومات العربية- عند صدور هذا المعجم المنعش- أن تلزم وزاراتها وإداراتها، ومحاكمها، ومؤسساتها التعليمية الاقتصارعلى استعمال الألفاظ العربية المدرجة فيه.

ولا شك أن التقاء علماء العربية يساعد على تقارب وجهات نظرهم حول المصطلحات المختلف عليها. ونحن نلحظ ذلك في المؤتمرات السنوية

لمجمع اللغة العربية القاهري، الذي يضم علماء العربية من أقطار العالم، دون اقتصار على أعضاء مجامع الدول العربية.ولكن قصر الفترة الزمنية التي يلتقي فيها هؤلاء العلماء لا تسمح بإخراج عمل متكامل لتوحيد المصطلحات.

يجب علينا أن ننظر إلى المشرع نظرة قومية شاملة، بحيث تتضافر جهود علماء العربية ومجامعها وهيئاتها الثقافية للعمل على تحقيقه، ذلك أنها قضية مهمة تواجه الحياة العربية المعاصرة من ثلاثة وجوه[43]: أولها، الوجه العلمي: الذي يمهد الطريق للغتنا العربية كي تسير على درب اللحاق بركب التطور العلمي الحديث، وثانيها الوجه الاجتماعي: الذي يجعل اللغة العربية وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها، ملائمة لمتطلبات الحياة العصرية المتجددة، وثالثها الوجه السياسي: فالوحدة اللغوية أولى ركائز التماسك و التقارب بين دولنا العربية.

نحتاج- لتحقيق هذا التوحيد المصطلحي- إلى مؤسسة أو هيئة عربية يكون رأيها هو القول الفصل لترجيح بعض المصطلحات على بعض.

وتخضع الحكومات العربية كما يخضع العلماء و المترجمون لحكمها.

كما نحتاج إلى الإكثار من ترجمة أمهات الكتب العلمية، وإلحاقها بمسارد توضح المصطلحات الأجنبية التي استخدمت فيها، مع ترجمتها وتوضيح مفهومها.

العوائق التي تواجه توحيد المصطلحات العلمية و الحضارية:

-مشكلة الاتفاق على المصطلحات الموحدة بين المجامع في العالم العربي.

-مشكلة تقبل العامة لمصطلحات المجمع، فيلزم الحرص على تداول المصطلحات الموحدة بين أفراد الأمة.

-مشكلة عدم قدرة المجمع على ملاحقة المصطلحات الجديدة، ومواكبة المترجمات التي تصدر في الصحف أو وسائل الاتصال، فتشيع الكلمة غير المجمعية، ويصعب قبول غيرها بعد ذلك.

-تمسك علماء كل قطر بمصطلحاتهم الخاصة، التي يظنون أنها تؤكد هويتهم، فيجب أن نتسامى على الاعتبارات الشخصية أو الوطنية حتى يمكن الوصول إلى اتفاق في المصطلحات.

رؤية للتقريب بين المجامع اللغوية لتوحيد المصطلحات:

1 -توضع المصطلحات من قبل المتخصصين العلميين من أعضاء المجامع العلمية. أو من قبل اللجان العلمية المتخصصة في وضع المصطلحات بالمجامع اللغوية على أن يكون من أعضائها واحد أو أكثر من اللغويين.

2 -اقترح أن يضطلع اتحاد المجامع اللغوية بعملية توحيد المصطلحات العلمية والحضارية بين أقطار الأمة العربية. ولتحقيق ذلك يلزم أن يؤسس له موقع إلكتروني على الشابكة (الانترنت)، يستخدم التقانات المناسبة، لمساعدة العلماء و المتخصصين في كل فروع العلم، على الالتقاء وإجراء النقاش العلمي، وتبادل الأفكار ووجهات النظر.

3 -تشكيل لجنة مركزية لتنسيق المصطلحات، تتكون من عضوين من كل مجمع عربي، وعضوين من مكتب تنسيق التعريب بالرباط.تكون مهمتها مراجعة المصطلحات التي أصدرتها المجامع اللغوية و العلمية العربية و محاولة تمحيصها للوصول إلى المصطلح الذي يوافق عليه أغلب أعضاء اللجنة.

4 -إنشاء بنك للمصطلحات العلمية في الموقع، تدرج فيه المصطلحات الموحدة التي ارتضتها لجنة تنسيق المصطلحات، وترتب فيه مصطلحات كل فرع من فروع العلم هجائيا.

ولكي يتكاتف العلماء العرب من المجمعين وغيرهم، وتتكامل جهودهم في وضع المصطلحات العلمية أقترح:

أولا: إنشاء هيئة، أو مركز، لترجمة البحوث العلمية التي تنشر في الحوليات و الدوريات العلمية المتخصصة سواء الأمريكية أو الروسية أو الأوربية وغيرها من البلاد المتقدمة.

ثانيا: إنشاء قاعدة بيانات تضم أسماء علماء العالم العربي المتخصصين في فروع العلم المختلفة، مصنفين وفقا لتخصصاتهم الدقيقة.

-مكاتبة هؤلاء العلماء بشأن ترجمة المصطلحات الحديثة في تخصصاتهم، ثم الاشتراك في المناقشة العلمية لهذه الترجمات،والمواءمة بينها وبين الترجمات التي اقترحت من قبل غيرهم من علماء الأمة، بغية الوصول إلى أدق ترجمة وأصلحها، على أن تخصص مكافأة مالية مناسبة للمصطلحات المترجمة، وكذلك للمصطلحات المتفق على توحيدها، لضمان الجدية في العمل.

-تنشأ قاعدة بيانات لمصطلحات العلماء غير المجمعين- في كل فرع من فروع العلوم- وتضم الترجمات التي يتفق عليها أغلب العلماء والمختصين في مناقشتهم عبر الموقع، ويلزم أن يحتوى كل مصطلح على الحقول التالية:

-المعنى اللغوي للمصطلح.

-المعنى الاصطلاحي له.

-طريقة كتابته صوتيا وفقا لرموز الرابطة الدولية للصوتيات I P A.

-ترجمته إلأى اللغات المعتمدة بالمعجم الموحد.

-تعرض الترجمات التي أقرتها هيئة- أو مركز- ترجمة البحوث العلمية المنشورة، وكذلك الترجمات التي تضمنتها قاعدة بيانات مصطلحات العلماء غير المجمعيين، على اللجنة المركزية لتنسيق المصطلحات لكي

تراجعها وتمحصها للوصول إلى المصطلح الموحد الذي يوافق عليه أغلب أعضائها.

وبين أيدينا نموذج ناجح للمصطلحات العلمية الموحدة، يمكن أن يتحدى به، يتمثل في:

-المعجم الطبي الموحد(فرنسي- انكليزي- عربي)[44]- للدكتور محمد هيثم الخياط.

-وقد تعاونت على إصداره عدة مؤسسات هي: مجلس وزراء الصحة العرب، واتحاد الأطباء العرب، ومنظمة الصحة العالمية (المكتب الإقليمي لشرق المتوسط)، و المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم.

وقد بدأت جهود هذه الكوكبة من علماء الطب العرب بإصدار معجم طب الأسنان الموحد في مجلدين(انجليزي- عربي وعربي انجليزي)، ومعجم الصيدلة الموحد، ومعجم التشريح الموحد، و المعجم الطبي الموحد ثنائي اللغة(الانجليزية- العربية).

-كما تهيأ منظمة الصحة العالمية لشرق المتوسط لإصدار عدد من المعجمات الطبية مثل المعجم الطبي الموحد الوجيز للطلاب و العاملين الصحيين و المهتمين بالشؤون الصحية من غير المختصين بالطب، والمعجم الطبي الموحد الخماسي اللغات(الإنجليزية و الفرنسية و العربية و الأسبانية و الألمانية).

في نسخة ورقية وأخرى إلكترونية. ثم المعجم الطبي الموحد المرصع بالشروح العربية بلغة سهلة، مع تزيينه بالصور التوضيحية[45].

-ويظهر إلى الدور قريبا نموذج آخر من التكاليف والعمل العلمي المشترك، الذي أنتج عددا من المصطلحات ضمن مشروع اللغات التطبيقية [46]، الذي تضطلع به كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، في إطار برنامج اللغات التطبيقية، وعنوانه☹نحو شبكة من المعرفة متعددة اللغات).

Vers un web de connaissances multilingue

ISKO-FRANCE2013

وسيكون موقعه متاحا (أي مفتوحا) على الشابكةWEBSITE ورابطه هو: WWW.ARTS.ALEXU.EDU.EG/STE

وقد رصدت مصطلحاته من مواقع جوجل الخاصة بالتعليم التدريبي والمعلوماتية، إلى جانب المرحلة الثانية من التطور الخاص بشبكة الويب العالمية WEB2.0. وأورد هنا طريقة عمله، التي تلحظ فيها تحديدا لما يأتي:

-المصطلح – تصنيفه-المجال الرئيسي له- المجال الفرعي.

-تعريف المصطلح- ومصدر التعريف.

-السياقات التي ورد فيها المصطلح مرتبة وفقا لشيوعها.

-المتلازمات اللفظية له.

-مرادفاته.

-علاقاته الدلالية.

-ثم بنيته الصرفية.

إن تكامل جهود العلماء نحو توحيد المصطلحات خطوة مهمة لتسريع العمل في هذا المشروع القومي الجليل.وتوحيد المصطلحات- على اختلاف فروعها- بين أقطار العالم العربي، هو النواة التي تمكن من تحقيق الترابط العلمي بين الدول العربية، و الأساس الذي يمكن أن ترتكز عليه نهضتها العلمية، وتكاملنا الثقافي و المعرفي.

الهوامش:

(1)محمد خلف الله أحمد: معالم التطور الحديث في اللغة وآدابها(مصر في القرن التاسع عشر) – ص-20

(2)هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام- ص 332.

(3)في هذه الفترة " اضطلعت مدرسة (القصر العيني) بتعليم الطب باللغة العربية زهاء سبعين سنة:" (متى تدخل المصطلحات العلمية حيز الاستعمال) للدكتور حسني سبح- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق- المجلد45: ج2:ص237 - 238.

(4)(اللغة العربية وعلوم العصر: د.عائشة عبد الرحمن): السان العربي: المجلد13:ص19-18.

(5)مجلة مجمع اللغة العربية-ج11:ص152،محاضر الجلسات- الدورة 21:ص493.

(6)كما فعل محمد شرف في معجم العلوم الطبية و الطبيعية،وأمين معلوف في معجم الحيوان و المعجم الفلكي،واحمد عيسى في معجم أسماء النبات،والأمير مصطفى الشهابي في معجم الألفاظ الزراعية.

(7)(لغة العلم):د.إبراهيم مدكور-مجلة المجمع العلمي العربي-المجلد-40 ج1:ص20.

(8)(معجم المصطلحات العلمية:جواد علي)-مجلة المجمع العلمي العراقي- المجلد3:ص368.

(9)بدأ بحث المصطلحات بمجمع القاهرة،مع انعقاد دورته الأولى عام 1934.

(10)مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية-ج5،ص6.

(11)محاضر الجلسات-دور الانعقاد الأول: الج=لسة-25ص427،(مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما: ماضيه وحاضره):إبراهيم مدكور: ص 55.

(12)المجامع العربية وقضايا اللغة:وفاء كامل-ص104-102.

(13)منها صيغة فعالة كثلاجة وشماعة وغسالة،وفاعلة كساقية ورافعة:المجامع العربية وقضايا اللغة-ص107،البحوث والمحاضرات:مؤتمر الدورة-29ص240،ص256.

(14)البحوث و المحاضرات: مؤتمر الدورة -31ص190 ، 259 - 260 ،278.

(15)مجلة مجمع اللغة العربية ج-26ص228،في أصول اللغة ج-2ص79.

(16)مجلة مجمع اللغة العربية الملكي ج-2ص35.

(17)مجلة مجمع اللغة العربية ج-25ص205،في أصول اللغة ج-2ص96.

(18) محاضر الجلسات-الجلسة -23دور الانعقاد الثاني-ص244.

(19)محاضر الجلسات-الدورة-12مجمع القاهرة:ص149،مجمع اللغة العربية في ثلاثين عامل-مجموعة القرارات العلمية:ص139.

(20)مجمع اللغة العربية في ثلاثين عامل - مجموعة القرارات العلمية:ص140.

(21)القرارات العلمية:ص143،مجلة مجمع اللغة العربية الملكي: ج1: ص37،محاضر جلسات مجمع اللغة العربية-دور الانعقاد الأول-ص431.

(22)محاضر الجلسات-دور الانعقاد الأول-مجمع اللغة العربية الملكي: ص433.

(23)مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما- مجموعة القرارات العلمية:ص144، محاضر الجلسات، دور الانعقاد الثاني: ص 122، ص116.

(24)مجموعة القرارات العلمية:ص148.

(25)مجموعة القرارات العلمية:ص149.

(26)مجموعة القرارات العلمية:ص151.

(27)مجموعة القرارات العلمية:ص 152.

(28)مجموعة القرارات العلمية:ص 154.

(29)محاضر جلسات دور الانعقاد السادس،ص73.

(30) محاضر جلسات دور الانعقاد السادس، ص78، مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما- القرارات العلمية:ص158.

(31) محاضر جلسات الدورة السابعة-ص48، مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما- القرارات العلمية:ص 159.

(32)محاضر جلسات دور الانعقاد الثاني-مجمع اللغة العربية الملكي-ص315، مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما- القرارات العلمية:ص161.

(33)مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما-القرارات العلمية:ص 160.

(34)محاضر جلسات الدورة العاشرة-ص230، مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما-القرارات العلمية:ص163.

(35)محاضر جلسات الدورة السابعة-ص48، مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما، القرارات العلمية:ص162.

(36)مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما-القرارات العلمية:ص164.

(37)مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما-القرارات العلمية:ص165.

(38)مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما-القرارات العلمية:ص167.

(39)مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما- القرارات العلمية:ص168.

(40)أخذت هذه المصطلحات من : معجم علم اللغة التطبيقي، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث/ لمحمد علي الخولي، ومعجم اللسانيات الحديثة لسامي عياد وآخرين،ومعجم المصطلحات اللسانية الحديثة لمجموعة من اللغويين، والمعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، وقاموس اللسانيات لعبد السلام المسدي، والمعجم العربي: إشكالات ومقاربات

لمحمد رشاد الحمزاوي، والمشردين الملحقين بكتابي: دراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر، واتجاهات البحث اللساني لسعد مصلوح ووفاء كامل.

(41)منهم نلينو، وحسني سبح، ومحمود مختار،ومحمود حافظ، ومحمد هيثم الخياط، وعبد الحافظ حلمي، ومحمد رشاد الحمزاوي.

(42)يتفق البحث هنا مع بعض ما ذكره الأمير مصطفى الشهابي، في بحثه (توحيد المصطلحات العلمية في البلاد العربية):مجلة مجمع اللغة العربية: ج11: ص-157ص162.وأيضا (توحيد المصطلحات العلمية العربية)- مجلة المجمع العلمي العربي- المجلد الأربعون-ج3:ص-537ص545، وهو ملخص للبحث السابق.

(43)انظر بحث شكري فيصل (المصلح العربي وتدريس العلوم بالعربية نحو وجهة نظر أخرى): مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق- المجلد-47 ج2:ص-379ص388.

(44)الطبعة الرابعة-منظمة الصحة العالمية ومكتبة لبنان ناشرون-بيروت2009.وقد صدرت طبعته الأولى عن مطبعة المجمع العراقي-بغداد1973، والطبعة الثانية عن مطبعة جامعة الموصل 1978،والطبعة الثالثة في ميدليفانت-سويسرا 1983.

(45)انظر مقدمة الدكتور حسين عبد الرزاق الجزائري ل(المعجم الطبي الموحد)، ص ط.

(46)اشترك في هذا المشروع كل من الأستاذتين:د-سهام القارح الأستاذة بقسم الصوتيات بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مع د.نيفين ثروت الأستاذة بقسم اللغة الفرنسية بآداب دمنهور، و الأستاذتين معالي فؤاد بكلية التجارة، جامعة الإسكندرية،ورغدة فريد بمكتبة جامعة سنجور.

أول معجم لغوي جزائري من التراث في حلة معاصرة
للشيخ عبد الرحمن الثعالبي
"معجم الغريب"
مفردات الألفاظ والتعابير من القرآن والسنة والأثر

تحقيق د.محمد عيسى وموسى
المجمع الجزائري للغة العربية

المحتوى

أولا . المستخلص والمدخل
ثانيا . حياته العلمية والاجتماعية
1 . النشأة.
2 . الذين أخذ عنهم
. في بجاية
. في تونس
. في مصر
. في تونس مرة ثانية
3 . طلاب الثعالبي
. من مدينة الجزائر
. من تلمسان
. من بسكرة

.من المغرب
.من مصر
4.في المجتمع
ثالثا.معجم الثعالبي في الغريب
1.المعجم قبل الطباعة
أ.الثعالبي والمعجميون
ب.مخطوط المعجم
ج.تسمية المعجم
د.مصادر معجم الثعالبي
هـ.وصف المعجم في صيغته الأصلية
2.وصف المطبوع
أ.الطبعة الأولى 1910
ب.الطبعة الثانية 1985
ج.التعريف بخصائص الطبعة الجديدة 2015

أولا -المستخلص والمدخل

- المستخلص

إن الهدف من البحث، هو المساهمة في جهود الباحثين المهتمين بالتراث الجزائري، وهو أيضا عمل يحاول - ما أمكن - تقديم الجديد للمهتمين بمساهمة العلماء الجزائريين، والتعريف بما قدموه في الجانب اللغوي عموما، وفي العمل المعجمي بخاصة. يتناول البحث مدخلا عن عصر الثعالبي، و محورين رئيسيين: في الأول، عرض موجز عن حياة الثعالبي العلمية، واختص الثاني بعرض فيه شيء من التفصيل عن المعجم، بداية من المخطوط، وانتهاء عند الطبعة الجديدة سنة 2015 .

- المدخل:

عاش الثعالبي في عصر سادت فيه الفتن في الداخل، مع تعرض السواحل في الشمال الإفريقي كله لهجمات البرتغاليين والإسبان، بسبب الضعف والانحطاط الذي أصاب المجتمع، فساد الجهل وعمت الفتن، نشأ الثعالبي في هذا الظرف، الذي ميزه الانحطاط والتفكك، ولكن ذلك لم ينل من عزمه فشد الرحال، وجال في الأمصار طالبا العلم، فلما اشتد عوده، رجع إلى مدينة الجزائر فتعلق الناس به، ورأوا فيه المنقذ والملجأ، وكان يحث على الجهاد، والاستعداد، والتصدي للعدوان الخارجي، ولذلك لُقب بحارس مدينة الجزائر.

ثانيا - حياته العلمية والاجتماعية

1 - النشأة

الثعالبي أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (ت 875هـ - 1470م).

إنه العالم الزاهد، الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، نسبة إلى قبيلة الثعالبة، كنيته أبو زيد، ولد سنة 784هـ - 1382م. عاش 91 عاما بالهجري 88 عاما بالميلادي.

ترجمة الثعالبي مشهورة، ذكرها كثير من الذين كتبوا عن حياته وأعماله وأسفاره، وبخاصة عن تصوفه وعن ضريحه.

2 - الذين أخذ عنهم:

بعد أن درس في صغره في مدينته مسقط رأسه، رحل سنة 1402 وعمره 16 سنة إلى مدينة بجاية، مدينة العلم في عهده، ودامت إقامته في الدراسة 7 سنوات، درس فيها على شيوخها، منهم:

. أحمد النقاوسي وقد تناول ترجمته بالتفصيل المرحوم أبو القاسم سعد الله " تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص 89 - 91 " جاء فيها: ومن المؤكد أنه من تلاميذ عيسى الغبريني، وأنه من شيوخ الثعالبي، وأن والده يدعى عبد الرحمن، وأنه عاش في بجاية أو قسنطينة.

وفي تونس:

- أبو عبد الله محمد بن خليفة التونسي المشهور بالأبي توفي سنة 828 هـ، محدث، حافظ، فقيه، مفسر، ناظم. من تصانيفه: اكمال الاكمال في شرح مسلم في أربع مجلدات، شرح المدونة في فروع الفقه المالكي، وتفسير القرآن في ثمان مجلدات.

- أبو القاسم أحمد بن محمد الشهير بالبرزلي توفي سنة 844 هـ، فقيه مشارك في أنواع من العلوم.

من تصانيفه: الديوان الكبير في الفقه والفتاوى.

- أبو مهدي عيسى بن أحمد بن يحيى الغبريني المالكي، قاضي تونس وعالمها. ولي خطابة جامعها الأعظم - جامع الزيتونة - بعد شيخه ابن عرفه توفي سنة 813 هـ.

في مصر: واصل رحلته العلمية إلى مصر فدرس فيها على :

- أبو عبد الله البلالي (750 - 820 هـ) فقيه شافعي، تميز بالتصوف، ولازم النظر في كتاب (الإحياء) للغزالي، ومن تصانيفه: جنة المعارف.

- قاضي القضاة ولي الدين العراقي (762 - 826هـ) هو أحمد بن عبد الرحيم قاضي القضاة ولي الدين أبو زرعة، له مصنفات كثيرة، منها: كتاب تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل، وكتاب الإطراف بأوهام الأطراف للمزي، وتحفة الوارد بترجمة الوالد، وشرح الصدر بذكر ليلة القدر، وفضل الخيل وما فيها من الخير والنبل، والدليل القويم على صحة جمع التقديم، وذيل على الكاشف للحافظ الذهبي. ومؤلفات أخرى كثيرة.

في تونس للمرة الثانية

بعد قصده الحجازلأداء فريضة الحج، وفي طريق العودة أقام في تونس للمرة الثانية.

-لازم فيها الشيخ القلشاني وهوأحمد بن محمد بن عبد الله، أبو العباس قاض تونسي، تولى قضاء قسنطينة سنة 822، ثم قضاء الجماعة بتونس. وانقطع للإمامة بالزيتونة إلى أن توفي.

من كتبه: شرح الرسالة لابن أبي زيد القيرواني وشرح مختصر ابن الحاجب الفرعي في سبعة مجلدات، وشرح المدونة، نسبته إلى قلشان من نواحي تونس.

3 – طلاب العلم

بعد عودته اختارمدينة الجزائرللإقامة، وقد تسلح بزاد العلم، فجلس للتدريس والتأليف، وتتلمذ على يده طلاب من كل أنحاء الجزائر، وبخاصة من مدينة تلمسان، وقصده آخرون من المغرب ومصر. ومن هؤلاء :

من مدينة الجزائر:

- أحمد بن عبد الله الجزائري اشتهربمنظومته (الجزائرية) في العقائد

ومن تلمسان منهم :

- محمد بن يوسف السنوسي الذي اشتهربالزهد والتأليف في العقائد وغيرها.
- أخوه لأمه محمد التالوني
- محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي هزالحياة العلمية في عهده.
- العالم محمد بن مرزوق الكفيف

ومن بسكرة:

- عيسى بن سلامة البسكري الذي سارعلى نهج شيخه في الورع والزهد

ومن المغرب:

- أحمد زروق البرنوسي الذي أصبح له شأن في الزهد والتصوف

ومن مصر :

- عبد الباسط بن خليل الذي حصل على الإجازة من شيخه.

4. في المجتمع

الثعالبي نسبة إلى قبيلة الثعالبة قطنت سهل متيجة بين مدينة الجزائر وجبال الأطلس ويمتد شرقا إلى مدينة يسر مسقط رأس الثعالبي . وينسب أيضا إلى مدينة الجزائر. عاش بها طويلا، ودفن بها، وله دور كبير في حياتها العلمية والسياسية. وكان عصره عصر تفكك داخلي للعالم الإسلامي وغزو خارجي.

لعبت قبيلته الثعالبة وهو على رأسها دورا محوريا في محيط مدينة الجزائر، ولكنه لم يؤسس طريقة، ولم ينشئ زاوية، ولكن الناس جعلوا منه المنقذ، ونسبوا إليه الكرامات لحاجتهم في ذلك العهد إلى منقذ من الفتن، بسبب الصراعات بين الدوليات، وضعف السلطة، وشيوع البدع، والحروب بين الحكم المريني والحفصي والزياني، إضافة إلى الأطماع الخارجية من البرتغاليين والأسبان.

لعب الثعالبي دورا عظيما لصد الخطر الخارجي المتمثل في الروم الذين انتقموا لضياع القسطنطينية منهم، وقد وصلت الأنباء للثعالبي تحمل أخبار ما تعرضت له مدينة بجاية التي درس فيها، وتألم كثيرا وكتب إلى أهل بجاية يحثهم على الاستعداد لمواجهة الخطر. وفي مدينة الجزائر تولى بنفسه - نظرا لعدم وجود سلطة ولا جيش - مهمة حث الناس على الجهاد، ولذلك اكتسب لقب حارس مدينة الجزائر، وظل هذا اللقب قائما بعده في الذاكرة الشعبية لما قام به من جهود في شحذ الهمم للاستعداد للمواجهة وقد التف الناس حوله.[أفاض المرحوم أبو القاسم سعد الله، وأتى بتفاصيل وافية عن حياته، وعصره، وشيوخه، وتلاميذه، وآثاره، وذلك في

أحدث بحث عن الثعالبي، نشره في: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين. 2005، ج4، ص 807. 811].

ثالثا: معجم الثعالبي في غريب اللغة

1. المعجم قبل الطباعة:

أ. الثعالبي والمعجميون

من المعلوم أن الباحثين في المعجمية العربية، يسندون تأسيس هذا العلم إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي (100 . 170 هـ) لتأليفه كتاب العين، ولاعتماده أسلوب " التقليبات " الذي كان يهدف من ورائه، إلى أن يحيط إحاطة شاملة بكل الألفاظ العربية المستعملة إلى عهده، وكذلك كل الألفاظ المهملة وهي الغالبة.

تطورت المعجمية العربية بعده، وبلغت نضجها ورقيها في القرن الرابع، على يد مجموعة من العلماء الذين تأثروا بالخليل بن أحمد، واتبعوا نهجه. كابن دريد في الجمهرة (ت 321 هـ)، وكأبي علي القالي في البارع (ت 356 هـ)، وابن فارس في مقاييس اللغة، والمجمل (ت 395)، وفي هذا القرن الذي هو قرن ازدهار المعاجم، برز الجوهري بقاموسه الصحاح (ت 393 هـ)، ولكنه وعلى خلاف معاصريه، لم يسلك نهج الخليل بن أحمد، وإنما اتبع في تأليفه أسلوب القافية، أي: باعتماد الحرف الأخير بابا، والحرف الأول فصلا. تبعه وسلك نهجه عدد من المعجميين منهم : في القرن السابع، الصاغاني في العباب (ت 650 هـ)، وابن منظور في اللسان (ت 711 هـ)، وهذا ما فعله أيضا في القرن الثامن، الفيروزآبادي في القاموس (ت 817هـ). [تفاصيل أكثر في الموضوع في: عبد اللطيف عبيد، التجربة القاموسية العربية. في: بحوث الاجتماع الثاني لخبراء المعجم الحاسوبي التفاعلي للغة العربية، دمشق، 2007. ص 3. 22] .

أما الثعالبي في معجمه " الغريب " (ت 875 هـ)، فإنه سلك مسلكا مغايرا لما سبق ذكره، وسار على نهج الزمخشري في أساس البلاغة، (ت 538 هـ)، فإنه رتب المعجم على الأبجدية العربية، باعتماد ترتيب الألفاظ حسب أوائل الحروف للكلمات، ولم يكن ذلك شائعا في الاستعمال، وإنما كانت الغلبة لأسلوب الخليل، أي: " التقليبات " أول الأمر، ثم لأسلوب " القافية " بعد ذلك.

ب. مخطوط المعجم

اللوحة رقم 1

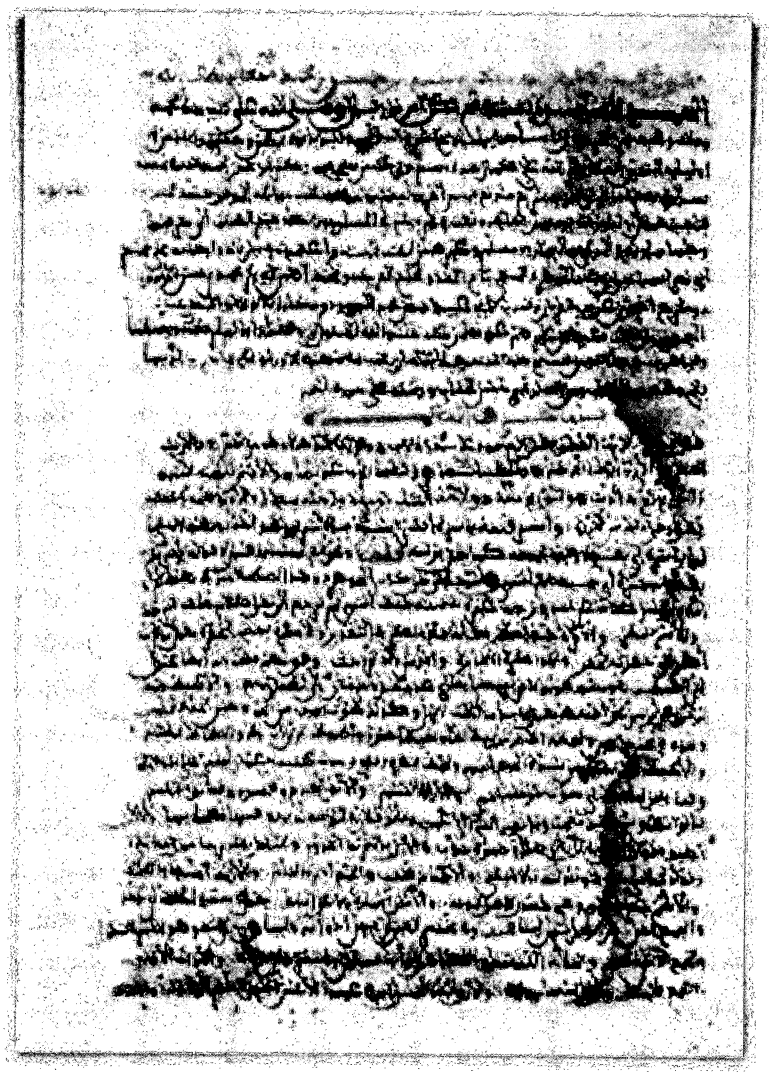

نموذج: بداية المخطوط. الورقة 162 والعنوان: معجم الغريب
المؤلف : عبد الرحمن بن محمد الثعالبي.
رقم المخطوط: 2734 المكتبة الوطنية الجزائرية

اللوحة رقم 2

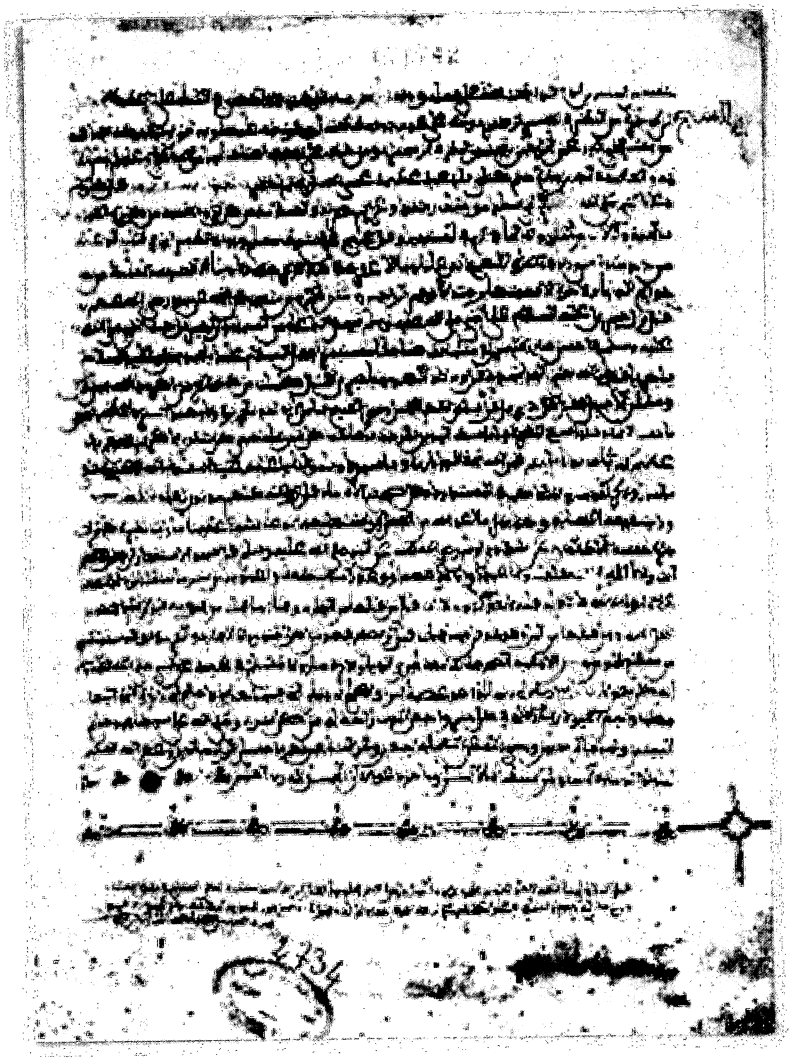

نموذج: نهاية المخطوط. 138 ظ

العنوان: معجم الغريب

المؤلف : عبد الرحمن بن محمد الثعالبي.

المكتبة الوطنية الجزائرية / رقم المخطوط:2734

عدد أوراقه: 22 ورقة (44 صفحة)، 31 سطرا في كل وجه

البداية: في الورقة [162] وجه.

النهاية: في الورقة [183] ظهر.

الخط مغربي جميل، غير واضح، بسبب تأثير الرطوبة، مع تآكل في كل أوراقه بفعل الأرضة. استعمل فيه اللون الأحمر لإظهار عناوين الأبواب والفصول، ولبيان الفصل بين الألفاظ ومعانيها.

بداية المخطوط: يقول الفقير إلى الله سبحانه، عبد الرحمن بن محمد الثعالبي لطف الله به ... (الورقة 162) وجه.

آخره : ... وغفر الله العظيم لنا، ولوالدينا، ولأمتنا، ولمن سبقنا، بالإيمان. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين (الورقة 183) ظهر.

ج. تسمية المعجم

جاء في بداية المخطوط قول الثعالبي: [فإنه لما يسر الله علي إكمال هذا المختصر، (أي تفسير الجواهر الحسان) وفرغت من تصحيحه، وكثر الراغبون بحمد الله في تحصيله، سألني بعض إخواني، أن ألحق به شرح ما وقع فيه من الغريب، ليتم بذلك مقصود الكتاب، والله الموفق للصواب، فأجبتهم إلى ذلك، ... ومَن نسخ هذا المختصر، فلابد له أن يكتب معه هذه الأوراق التي في الغريب، إذ به يتم مقصود الكتاب، ومن الله أرتجي حسن المآب، ورتبته على حروف المعجم.(الورقة 162 وجه)].

وجاء قول الثعالبي في نهاية المخطوط: [يقول الفقير إلى الله عز وجل، عبد الرحمن بن محمد لطف الله به وعفا عنه، قد يسر الله إتمام ما قصدناه، من شرح الغريب الواقع في مختصرنا، وهو بحمد الله مفيد، ومتعد نفعه في سائر الكتب، سيما كتب الحديث والتفسير، واعلم أيها الأخ أن التحدث بالنعم شكر لها، والذي أخبرك به: أني رأيت لكتابي هذا

المسمى: بـ" الجواهر الحسان في تفسير القرآن " الذي ألفت هذا الغريب من أجله، عجائب وأمورا مباركة... (الورقة 182 ظهر / 183 وجه)].

يفهم من عبارة: الغريب التي وردت في بداية المعجم، وكذلك في نهايته أيضا، وكأنها التسمية التي اختارها لكتابه، إلا أنه لم يصرح بها، وقد فعل ذلك في مستهل التفسير حين قال:

[وسميته بالجواهر الحسان في تفسير القرآن].

من أجل ذلك، اقترحت هذه الطبعة، الاحتفاظ بلفظ الغريب في العنوان، مع إضافة عنوان فرعي شارح على الشكل التالي:

معجم الغريب
مفردات الألفاظ والتعابير من القرآن والسنة والأثر

د. مصادر معجم الثعالبي

وضع الشيخ عبد الرحمن الثعالبي معجمه، بعد إتمام التفسير وتداوله بين الناس، واعتمد في جمع مواده على أربعة مصادر، ذكرها في المقدمة قال:

[اعتمدت في بيان ذلك وإيضاحه، على:

صحاح أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، المسمى بتاج اللغة وصحاح العربية. (توفي حوالي 398 هـ / 1008 م).

ومختصر العين، لأبي بكر محمد بن حسن الزبيدي. (316 هـ. 928 م / 379 هـ. 989 م).

وشرح الغريبين: غريب القرآن، وغريب الحديث، لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي. (ت 410 هـ / 1011 م).

ومشارق الأنوار، لأبي الفضل عياض اليحصبي. (496 هـ. 1103 م/ 544 هـ. 1149 م).

وإن نقلت شيئا عن غيرهم، عزوته لمن عنه نقلت. (الورقة 162وجه)].

ومن هؤلاء الذين يعنيهم. بقوله: " وإن نقلت شيئا عن غيرهم ". وكان يذكرهم وينقل عنهم: ابن السكيت يعقوب بن إسحاق. (186هـ. 802 م / 244 هـ 858 م)، دون إشارة إلى عنوان الكتاب، ولعله كتاب " إصلاح المنطق ". ثم كتاب الأفعال، لابن القوطية أبوبكر محمد بن عمر (ت 367 هـ / 977 م). وكتاب شرح مقامات الحريري، للشريشي أحمد بن عبد المؤمن (577 هـ. 1181 م / 619 هـ. 1223 م).

ونقل مادته أيضا من كتب الحديث قال: [وزدت فيه بيان ألفاظ وقعت في غيره، يكثر في اللسان دورانها، ويفتقر الطالب إلى معرفتها، وجلها مما وقع في الموطأ والبخاري، وغيرها من الكتب الستة. (الورقة 162 وجه)] .

هـ. وصف المعجم في صيغته الأصلية

إن ما ميّز محتوى معجم الثعالبي عن غيره من المعاجم المعروفة، اقتصاره في جمع مادته على مفردات وعبارات، مستخرجة من سياقها في تفسيره: الجواهر الحسان في تفسير القرآن. أو من سياق السنة والأثر. وكان يهدف إلى شرح الألفاظ الغريبة التي نقلها من مضامينها، فالكتاب ليس تجميعا لمفردات وعبارات لوضع معجم في اللغة، كما هو الحال عند مؤلفي المعاجم اللغوية، إلا أنّ الثعالبي عندما قام بجمع المفردات التي عدها في الغريب لم يحدد موقعها من تفسيره، أو من السنة أو من غيرهما.

توزعت مواد المعجم على ثمانية وعشرين بابا، بعدد حروف الهجاء. جاء فيها عرض المضمون من المفردات الخاصة بكل حرف من الحروف مجمعة دون ترتيب.

اعتمد الثعالبي في جمع الألفاظ وعرضها على أسلوب فريد، يقضي بتفريع كل باب إلى فصول، يضم كل فصل أربع مجموعات من ألفاظ، ميزها حسب مصدرها، أي: إنه تناول في كل فصل مواد كل مصدر من المصادر الأربعة التي اعتمدها، وعرضها في مجموعة مستقلة.

يبدأ في كل مرة بالجوهري في فصل، ثم يليه الزبيدي في فصل، ثم الهروي في فصل، وينتهي بعياض في فصل. وحين استعرض مفردات كل فصل، فإنه لم يراع الترتيب داخل كل مجموعة، فجاءت الألفاظ متتابعة دون نظام،ولبيان ذلك هذه ثلاثة أمثلة التي هي المفردات الأولى في بداية كل فصل في [باب الباء]،يتبين فيها توزيع مفردات الباب الواحد على أربع مجموعات ودون ترتيب داخل كل مجموعة وتظهر أرقام المداخل ترتيبها بعد جمعها في الطبعة الجديدة. يحتوي الباب -كغيره من الأبواب الأخرى- على أربعة فصول:

مثال من الفصل الأول من باب الباء نقلا عن الجوهري

[103 . بكت]

التَّبْكِيتُ: كَالتَّقْرِيعِ والتَّعْنِيفِ، ولَفْظُ الهَرَوِي: وَفِي الحَدِيثِ أَنَّهُ أَتَى بِشَارِبٍ، فَقَالَ: بَكِّتُوهُ. التَّبْكِيتُ: يَكُونُ تَقْرِيعًا بِاللِّسَانِ، وقَدْ يَكُونُ بِاليَدِ وَالعَصَا وَنَحْوِهِ.

[74 . برد]

البَرِيدُ: المُرَتَّبُ، يُقَالُ: حُمِلَ فُلَانٌ عَلَى البَرِيدِ، وَالبَرِيدُ أَيْضًا: اثْنَا عَشَرَ مِيلاً، وَصَاحِبُ البَرِيدِ قَدْ أَبْرَدَ إِلَى الأَمِيرِ فَهُوَ مُبْرِدٌ، وَالرَّسُولُ: بَرِيدٌ.

[58 . بحح]

وَفِي حَدِيثٍ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْكُنَ بَحْبُوحَةَ الجَنَّةِ، فَلْيَلْزَم الجَمَاعَةَ، يَعْنِي: وَسَطَ الجَنَّةِ.

مثال من الفصل الثاني من باب الباء نقلا عن الزبيدي

[79 . برع]

وَبَرَعَ الرَّجُلُ، وبُرِعَ أَيْضًا بِالضَّم بَرَاعَةً، أَيْ: فَاقَ أَصْحَابَهُ فِي العِلْمِ وَغَيْرِهِ فَهُوَ: بَارِعٌ، قَالَ الزُّبَيْدِي: البَارِعُ: الأَصِيلُ الجَيِّدُ، وفَعَلْتُ كَذَا مُتَبَرِّعًا، أَيْ: مُتَطَوِّعًا.

[72 . برح]

وَبَرَّحْتُ بِهِ: آذَيْتُهُ. قَالَ عِيَاضُ: وَفِي الحَدِيثِ، لَقَيْنَا مِنْهُ، بِفَتْحِ البَاءِ وَسُكُونِ الرَّاءِ، أَيْ: المَشَقَّةَ وشِدَّةَ الأَمْرِ.

يُقَالُ: بَرَّحَ بِهِ كَذا إِذَا شَقَّ عَلَيْهِ، وَمِنْهُ قَولُهُمْ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، أَيْ: غَيْرَ شَدِيدٍ، يَبْلُغُ المَشَقَّةَ مِنْ صَاحِبِهِ، وَالعَذَابَ لَهُ. قُلْتُ: قَالَ الشَّرِيشِي فِي شَرْحِهِ لِمَقامَاتِ الحَرِيرِي: بَرَحَ، أَيْ: انْكَشَفَ خَفَاؤُهُمْ، أَيْ سِرُّهُمْ.

[67 . بذخ]

وَبَذَخَ بُذُوخًا وَبَذَخًا: إِذَا تَطَاوَلَ فِي افْتِخَارِهِ، وَرَجُلٌ بَذَّاخٌ، وَالبَاذِخُ: الجَبَلُ الطَّوِيلُ.

مثال من الفصل الرابع من باب الباء نقلا عن عياض

[124 . بوأ]

قَالَ عِيَاض قَوْلُهُ: عَلَيْكُمْ بِالبَاءَةِ. ممْدُودٌ مَهْمُوزٌ: هُوَ النِّكَاحُ، وَهُوَ الجِمَاعُ

[61 . بخت]

وَالبُخْتُ: الإِبِلُ الخُرَاسَانِيَّةُ. وَقَوْلُهُ: كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ، وَهِيَ إبلٌ غِلَاظٌ ذَاتُ سَنَامَيْنِ.

[70 . بذل]

وَقَوْلُهُ: وَالمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ: مِنْ البَذْلِ وهُوَ العَطَاءُ.

وبعد نهاية الفصل الرابع من باب الهمزة، يلتزم بهذا النهج في أبواب حروف المعجم كلها. ومن أجل ذلك، دعت الحاجة إلى إعادة الصياغة، واعتماد أسلوب جديد يقضي بترتيب المواد ودمجها، ورد مفردات الألفاظ إلى أصولها، وربطها بسياقها، في القرآن الكريم، أو في السنة الشريفة، أو في الأثر.

2. وصف المطبوع

اللوحة رقم 3

هذا معجم مختصر
في شرح ما وقع في كتاب
﴿الجواهر الحسان في تفسير القرآن﴾
من الالفاظ الغريبة المحتاجة به مؤلفه الشيخ ﴿سيدي عبد
الرحمن الثعالبي﴾ لتتم بذلك فائدته شكر الله سعيه
وقدس سره وزاد فيه بيان كلمات اخرى وردت في غيره
يفتقر الطالب الى معرفتها رجاء ما يأتي في الموطأ
وصحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من الكتب
المشهورة وبناه على ما ذكر ﴿فهذا
المعجم مفيد وحده ايضا﴾ ولذلك
طبع على حدته مستقلا ليسهل
اقتناؤه وليكون
تقييده عاما
طبع في المطبعة الثعالبية لصاحبها احمد بن مراد التركي واخيه
بالجزائر سنة ١٣٢٨ .

نموذج: غلاف: المطبوع سنة 1910

العنوان: معجم الغريب

المؤلف : عبد الرحمن بن محمد الثعالبي.

المكتبة الوطنية الجزائرية / الكتب النادرة رقم: 376

اللوحة رقم 4

نموذج: بداية المطبوع: سنة 1910

العنوان: معجم الغريب

المؤلف: عبد الرحمن بن محمد الثعالبي.

المكتبة الوطنية الجزائرية الكتب النادرة رقم: 376

اللوحة رقم 5

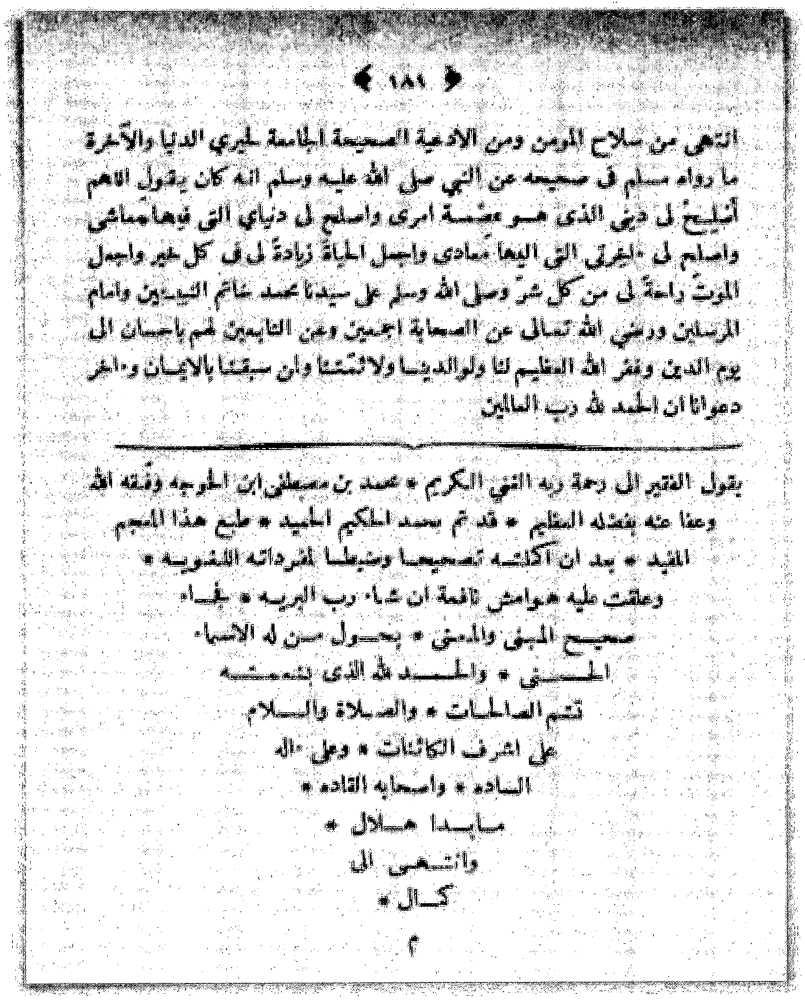

﴿ ١٨٤ ﴾

انتهى من سلاح المؤمن ومن الادعية الصحيحة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة
ما رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول اللهم
أصلح لي ديني الذي هو عصمة امري واصلح لي دنياي التي فيها معاشي
واصلح لي آخرتي التي اليها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل
الموت راحة لي من كل شر وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين وامام
المرسلين ورضي الله تعالى عن الصحابة اجمعين وعن التابعين لهم باحسان الى
يوم الدين وغفر الله العظيم لنا ولوالدينا ولاشياخنا وان سبقونا بالايمان وآخر
دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

يقول الفقير الى رحمة ربه الغني الكريم * محمد بن مصطفى ابن الخوجه وفقه الله
وعفا عنه بفضله العظيم * قد تم بحمد الملك الحميد * طبع هذا المعجم
المفيد * بعد ان أكملته تصحيحا وضبطا لمفرداته اللغوية *
وعلقت عليه هوامش نافعة ان شاء رب البريه * بفاء
صحيح المبنى والمعنى * يحول من له الاسماء
الحسنى * والحمد لله الذي بنعمته
تتم الصالحات * والصلاة والسلام
على اشرف الكائنات * وعلى آله
السادة * واصحابه القادة *
ما بدا هلال *
وانتهى الى
كمال *

٢

نموذج: نهاية المطبوع : سنة 1910

العنوان: معجم الغريب

المؤلف : عبد الرحمن بن محمد الثعالبي.

الكتب النادرة رقم: 376 / المكتبة الوطنية الجزائرية

طبع الكتاب مرات عديدة مع تفسير الجواهر الحسان، وصدرت طبعات المعجم كلها دون تحقيق أو ضبط للنصوص. ماعدا التهميش والتصحيح في الطبعة الأولى سنة 1910، وتكرر في الطبعات اللاحقة.

أ. الطبعة الأولى 1905

صدرت الطبعة الأولى في الجزائر، بتحقيق محمد بن مصطفى بن الخوجة. المطبعة الثعالبية سنة 1328 هـ/1910 م، 181ص (المكتبة الوطنية الجزائرية، مصلحة المخطوطات، الكتب النادرة رقمها: 376)

جاء على الصفحة الأولى: [هذا معجم مختصر، في شرح ماوقع في كتاب (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) من الألفاظ الغريبة، ألحقه به مؤلفه، الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي].

ب. صدرت الطبعة الثانية للدكتور عمار طالبي سنة 1985 والطبعة الثالثة سنة 2006 والطبعتان استنساخ لطبعة سنة 1910 .

ج . التعريف بخصائص الطبعة الجديدة 2015

اللوحة رقم 6 الطبعة الجديدة صفحة العنوان

الشيخ العلامة عبد الرحمن الثعالبي

معجم الغريب

شرح مفردات الألفاظ والعبارات من القرآن والسنة والأثر

تأليف الشيخ العلامة عبد الرحمن الثعالبي

ضبط الآيات والأحاديث والأشعار

ووثق ما ورد في الأثر

وشكّل نصوص المعجم كلها

ووضع رؤوس مداخلها

ورقّمها ورتّبها على حروف المعجم وأحال إلى مظانها

الدكتور محمد عيسى وموسى

الجزائر 2015

منشورات الدار الجزائرية
DAR EL DJAZAIRIA Edition

كان الثعالبي يهدف إلى وضع معجم للألفاظ التي في تفسيره، وفي غيره من كتب السنة، رأى بأنها في حاجة إلى شرح لتقريب مدلولها، إلا أن المعجم في طبعاته السابقة، صار لا يثير فضول الطلاب والباحثين، ولا يدفعهم إلى استعماله للأسباب التي سبقت الإشارة إليها، ولذلك كان لا مناص من العمل على ضبطه، وتنسيق مفرداته، وتقريب محتوى المعجم، بتطويره شكلا ومضمونا، دون المساس بجوهره، فأما المحتوى فإنه يتمثل في الرصيد اللغوي الذي هو من صنع الثعالبي، فكان لابد من المحافظة على الألفاظ نفسها، وإنما كان التغيير في طريقة عرضها، لمسايرة الأساليب الحديثة المعتمدة في صناعة المعاجم، وكان التحسين أيضا في المضمون، وذلك بإضافة الشروح، والاستشهاد بما يناسب اللفظ ومستوى علاقته بمصدره في القرآن الكريم، أو في السنة النبوية الشريفة، أو في الأثر.

إن المفردات اللغوية في المعجم، هي في الأصل ألفاظ استخرت من سياق النص القرآني، والسنة النبوية الشريفة، ولكن الثعالبي لم يذكر ذلك السياق، واكتفى بالشرح اللغوي، ولذلك فإن مفردات التفسير حين صارت في المعجم أصبحت معزولة عن محيطها وسياقها، فكان لابد من إرجاع كل لفظ إلى سياقه الأصلي، وذلك بالبحث عنه في القرآن الكريم، وفي الأحاديث النبوية،وفي الأثر، لبيان مدلوله ضمن سياقه وتراكيبه، ولتوضيح المعنى، أو المعاني، في حالة استعمال الكلمة في أكثر من سياق.

إن الهدف من هذا العمل، هو إحياء أداة معجمية قديمة غير متداولة الآن، وإلباسها ثوب العصرنة، لتكون صالحة للطلاب كما أرادها الثعالبي، ثم لتستجيب في الوقت نفسه لحاجة الباحثين المهتمين بالدراسات المعجمية واللغوية، للربط بين ماضي اللغة وحاضرها في الجزائر، وفي العالم العربي والإسلامي. ثم لإبراز جهود العلماء، ومدى انشغالهم باللغة

العربية ومحافظتهم على الاستعمال السليم، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة .

اعتمدت الطبعة الجديدة لأول مرة .على خلاف الطبعات السابقة .في ترتيب المداخل، نهج ابن منظور في لسان العرب، جاء في رأس كل مدخل، كلمة المدخل ورقمها بين معقوفين [ ] لكونها إضافة، ثم يبدأ كل مدخل بنص صاحب المعجم، تتبعه . وقد تتخلله . الإضافات بين معقوفين [ ] باللون الأحمر الغليظ، لتمييز النصوص المضافة، عن النصوص الأصلية، معنى ذلك فإن كلّ نص في المعجم خلا من تلك الإشارة فهو الأصل المنسوب إلى المؤلف، وكل نص وضع بين معقوفين باللون الأحمر، فهو إضافة لا يوجد في النص الأصلي للمؤلف.

وهكذا فإن المعجم الحالي في صيغته الجديدة، قد أقام جسرا، ربط بين ألفاظ اكتفى الثعالبي بجمعها من مصادره وشرحها، دون الإشارة إلى سياقها، كما أتم صنيع الثعالبي، فأصبح المعجم في الحلة الجديدة، يسيرا ومفيدا وصالحا للاستعمال، بعد أن أحكم الربط بين السياق ومحل الشاهد كما أراده المؤلف.

وهناك مقصد آخر من هذا العمل، إنه التنبيه إلى جانب آخر من تآليف الثعالبي، أغفله الدارسون ولم يتوقف عنده الباحثون، و قد يساعد المعجم الذي يعرض في حلة معاصرة، على إزاحة الستار عن هذا النوع من الأعمال في ثرا ثنا. وقد يُعَد، لحد اليوم، أول معجم لغوي جزائري من التراث، في حلة معاصرة، وقد تجود خزائن المخطوطات بمعاجم أخرى، تثري معرفتنا بمساهمة الجزائريين قديما في التأليف المعجمي اللغوي.

لم يحظ معجم الثعالبي بعناية الدارسين، وقد انقضى أزيد من قرن، حين أصدر الباحث محمد بن مصطفى بن الخوجة الطبعة الأولى سنة 1910، قال حينها في أول صفحة من المعجم: [وبناء على ما ذكر فهذا

المعجم مفيد وحده أيضا، ولذلك طبع على حدته مستقلا ليسهل اقتناؤه وليكون نفعه عاما].

نسوق دليلا آخر يبيّن عدم العناية بالمعجم، حين تجاهلته الفهارس، فلا ذكر للمعجم حين تُعد آثار الثعالبي، أو حين توصف وتعدّ آثار المؤلفين عموما. ففي أحدث دراسة قيمة للدكتور أبو القاسم سعد الله . وقد تقدمت الإشارة إليها . أحصى للثعالبي عشرين(20) مؤلفا ولا أثر للمعجم فيها، وهي. [1 - الجواهر الحسان، 2 - روضة الأنوار ونزهة الأخيار، 3 - الأنوار في معجزات الرسول وحياة الصحابة والغزوات، 4 - جامع الهمم، 5 - شرح على ابن الحاجب الفرعي، 6 - الأنوار المضيئة، 7 - الدر الفائق، 8 - العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة، 9 - كتاب الأربعين حديثا المختارة، 10 - المختار من الجوامع، 11 - جامع الفوائد، 12 - جامع الأمهات، 13 - رياض الصالحين، 14 - النصائح، 15 - الذهب الإبريز في آي القرآن العزيز، 16 - شرح في القراءات على منظومة ابن بري، 17 - تحفة الأقران في الإعراب، 18 - إرشاد السالك، 19 - التقاط الدرر، 20 - فهرسة ذكر فيها شيوخه ورحلته وتآليفه].

وليس هذا فحسب، فإن غياب العناية شملت المعجم نفسه، فإن الطبعات المشار إليها هي في الواقع نسخ للطبعة الأولى، وقد صدرت منذ أكثر من قرن سنة 1910، وهي نفسها استنساخ للمخطوطة التي أضاف إليها المشرف عليها تعليقات، وشروحا وإضافات هامة مفيدة في الهوامش، أما النص فإنه ظل على حاله دون تغيير، أو تحقيق يذكر، منذ عهد المؤلف.

الحركة اللغوية والنحوية في الأندلس
ظروف نشأتها وأهم منشطيها
حتى نهاية القرن الرابع الهجري

أ.د عبد القادر هني
قسم اللغة العربية
جامعة الجزائر 2

من المعروف تاريخيا أن المسلمين فتحوا الأندلس مع نهاية القرن الأول للهجرة (92هـ)، وأن نشر الإسلام في هذا الصقع واستتباب الأمن به تطلب منهم غير قليل من الجهد ومن الوقت لاسيما أن العصبيات القبلية التي سادت بين العرب في العصر الجاهلي التي وإن هدأت بعض الهدوء في صدر الإسلام فإنها عاودت الظهور وبعنف أحيانا في عصر بني أمية خاصة، إن هذه العصبيات انتقلت مع العرب الفاتحين إلى الأندلس، فكانت سببًا في اضطراب الوضع به بما وقع بين العرب من فتن أريقت فيها كثير من الدماء، في فترات مختلفة ليس هنا مجال تفصيل الكلام فيها، لكننا سنجتزئ بشاهد واحد ننقله على طوله من نفح الطيب لنستدل به على ما كان للعصبية القبلية من أثر في إرباك الوضع بالأندلس. قال المقري في تصويره بعضا من الأحداث العنيفة التي شهدها هذا البلد "... وقال الرازي: ثار أهل الأندلس بأميرهم عُقبة في صفر سنة ثلاث وعشرين في خلافة هشام بن عبد الملك، وولوا عليهم عبد الملك بن قَطَن ولايته الثانية،... واستقام الأمر

لعبد الملك، ثم دخل بَلْج بن بشر القشيري بجند الشام ناجيا من وقعة كلثوم بن عياض مع البربر بملوية، فثار على عبد الملك وقتله ...واستوثق له الأمر بعد مقتل عبد الملك، وانحاز الفهريون إلى جانب، فامتنعوا عليه وكاشفوه، واجتمع إليهم من أنكر فعلته بابن قَطَن، وقام بأمرهم قَطَن وأمية ابنا عبد الملك بن قطن والتقوا فكانت الدائرة على الفهريين وهَلَكَ بَلْجٌ مِن الجِراح التي نالته في حربهم ...ثم ولّى ثعلبة بن سلامة الجذامي وغلب على إمارة الأندلس ...وانحاز عنه الفهريون فلم يطيعوه وولى الأندلس سنتين أظهر فيهما العدل ودانت له الأندلس عشرة أشهر إلى أن مالت به العصبية في يمانيته ففسد أمره وهاجت الفتنة، وقدم أبو الخطار حسام بن ضِرار الكلبي من قِبَل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية ... فدان له أهل الأندلس وأقبل إليه ثعلبة وابن أبي نعسة وابنا عبد الملك فلقيهم وأحسن إليهم واستقام أمره ...وكان أبو الخطار أعرابيا عصبيًّا أفرط عند ولايته في التعصب لقومه من اليمانية وتحامل على المضرية وأسخط قيسًا وأمر في بعض الأيام بالصميل بن حاتم كبير القيسية ...فأقيم من مجلسه، وتقنع، فقال له بعض الحُجَّاب وهو خارج القصر: أقم عمامتك يا أبا الجوشن، فقال: إن كان لي قوم فسيقيمونها، فسار الصميل بن حاتم أميرهم يومئذ وزعيمهم وألَّب عليه قومه واستعان بالمنحرفين عنه من اليمانية فخُلع أبو الخطار ...وقدم مكانه ثوابة بن سلامة الجذامي وهاجت الحرب المشهورة ...إلخ".[1]

نقلنا هذا الكلام على طوله لنستدل به على الأحداث الدامية التي كانت تعصف بالأندلس في القرن الثاني للهجرة الذي اخترناه بداية للحديث عن النشاط اللغوي والنحوي في هذا الصقع من بلاد الإسلام. وهي أحداث لم يهدأ أوّارها طوال القرن الثاني، فكانت عاملاً استغله عبد الرحمن بن معاوية الفار من المشرق على إثر سقوط الدولة الأموية بأيدي العباسيين

للوصول إلى سدة الحكم في الأندلس (حكم من 138 إلى 172 ه). وتواصلت الفتن والثورات في عهده وبعده وأخذت أحيانًا فضلاً عن الطابع العصبي بعدًا دينيًا مثلما حدث في ثورة البربر التي قادها شاقية المكناسي (151ه) الذي ادعى أنه فاطمي من نسل الحسن والحسين[2]. ولعل النص التالي يكفينا مؤونة الاسترسال في رسم صورة للظروف التي ستنشأ في أحضانها الحركة اللغوية والنحوية في الأندلس، قال المقري في كلامه عن الثورات التي عرفها عهد عبد الرحمن بن معاوية الملقب بـ" عبد الرحمن الداخل" " وكثرت ثورة رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل، ونافسوه ملكه، ولقي منهم خطوبًا عظيمة وكانت العاقبة له، واستراب في آخر أمره بالعرب لكثرة من قام عليه منهم، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالي".[3]

في ظل هذا الوضع المتوهج بالثورات والفتن التي لا تكاد تهدأ حتى تلتهب من جديد نشأت الحركة اللغوية والنحوية التي نحن بصدد رسم معالمها من خلال أشهر منشطيها.

قد يبدو للوهلة الأولى أن هذه الظروف الشديدة الاضطراب التي عاشها أهل الأندلس في القرن الثاني للهجرة وفي بعض من الفترات التالية [4] ما كانت لتسمح للأندلسيين بالاهتمام بسوى بما يقيهم تبعات الفتن التي روعت البلاد ويحفظ أرواحهم ويضمن لهم لقمة العيش في حقبة كاد عبد الرحمن الداخل نفسه يفقد فيها سلطته على الرغم من حنكته [5].

ونحن إذْ انعطفنا هذا الانعطاف على الأحداث التي شملت القرن الثاني الهجري خاصة في بلاد الأندلس فإن غرضنا أن نبيّن مقدار تأثيرها في الحركة العلمية المتمثلة في ما يخص موضوعنا في نشأة علوم اللغة والنحو في هذه البلاد، بمعنى هل أدت هذه الظروف الصعبة التي مرّ بها

الأندلسيون في هذا الزمان إلى صرفهم عن التفكير في سوى الانكفاء على النفس وفي الاحتماء من آثار نيران الفتن المبيرة التي كانت تهز بلادهم؟

إذا علمنا أنه كان بين الفاتحين عَدَدٌ ممن شبَّ في أحضان الحركة العلمية التي بدأت تنشأ حول العلوم الإسلامية وما اتصل بها في وقت لم تكن فيها الأوضاع في المشرق أيضا هادئة كل الهدوء فإننا لا نستبعد عند وصول هؤلاء إلى الأندلس أن يجلسوا لتحفيظ المسلمين الجدد وكذا الوافدين من شمال إفريقيا القرآن الكريم وتعليمهم ما اتصل به من علوم بما فيها اللغة العربية وعلومها، فالمصنفون القدامى احتفظوا لنا بأسماء عددٍ من التابعين دخلوا الأندلس في أوائل الفتح مثلما فعل الحميدي في جذوة المقتبس والمقري في نفح الطيب [6]، وقد تولّى بعض هؤلاء التابعين تفقيه الناس في الدين وتعليمهم اللغة العربية وهو ما يُستشفُّ من الترجمات التي أثبتها لهم بعض المصنفين، فصاحب نفح الطيب على سبيل المثال يذكر أن حِبَّان بن أبي جبلة (ت 122هـ) من التابعين الذين دخلوا الأندلس مع موسى بن نصير* وأنه كان من بين العشرة الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز ليفقهوا أهل إفريقية [7]. والصلة بين العلوم الشرعية وعلوم العربية وثيقة في الثقافة الإسلامية، فقد حَصَر ابن خلدون علوم اللسان العربي في اللغة والنحو والبيان والأدب ثم قال:" ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلِّها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عربٌ، وشرح مشكلاتها من لغتهم، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة " [8].

فمن الطبيعي إذًا أن يكون التابعون الذين دخلوا الأندلس وجلسوا لتعليم الناس أمور الدين من العارفين بعلوم العربية وأن يكونوا قد حرصوا منذ هذا الوقت المبكر على تمكين تلاميذهم من هذه العلوم، لاسيما النحو الذي " به يتبين أصول المقاصد

بالدلالة ... ولولاه لَجُهل أصلُ الإفادة ... إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة " [9] وقد وردت إشارة في النفح إلى أن مغيث بن الحارث الذي دخل الأندلس مع طارق بن زياد " تأدب بدمشق مع بني عبد الملك فأفصح بالعربية " [10]، فهذا التمكن من العربية يؤهله من دون شك لأن يتولى نقل معارفه في اللغة والنحو إلى أهل هذا البلد لأن من المهام الأولى لهؤلاء التابعين " تعليم الناس الدين الإسلامي واللغة العربية " [11]. وعلى الرغم من أننا لا نزعم أن العناية بنشر اللغة وعلومها قد نشطت نشاطًا واسعًا في بدايات الفتح خاصة، بحكم الظروف التي توقفنا عندها، لكن مع ذلك فإننا نعتقد أن القرن الثاني الهجري يمثل بداية الحركة اللغوية والنحوية الأندلسية التي احتضنتها في هذه الحقبة الحلقات التي تعقد في المساجد التي أنشئت في هذه الفترة بالذات مثل مسجد قرطبة الذي أقامه الفاتحون مبكرًا، فقد نقل صاحب نفح الطيب عن ابن بشكوال في كتاب الصلة أن التابعين الذين دخلوا الأندلس أيام الفتح هم من أسس قبلة المسجد الجامع بقرطبة [12]، وذكر المقري أيضا أن عدد مساجد قرطبة بلغ أيام عبد الرحمن الداخل –أي قبل منصرم القرن الثاني للهجرة- " أربعمائة وتسعين مسجدًا ثم زادت بعد ذلك كثيرًا " [13]، ولم تشد بقية المدن الأندلسية عن قرطبة في بناء المساجد التي فضلا عن كونها أماكن للعبادة فإنها كانت تقدم المعرفة في علوم الدين وفي علوم العربية وأدبها، وقد حدث هذا قبل انقضاء المائة الثانية للهجرة، بل إن هذه المعارف بما فيها المعارف النحوية واللغوية كانت حلقاتها تعقد في المكاتب وفي دور المؤدبين الذين شرعوا هم الآخرون منذ القرن الثاني أيضا في نشر هذا اللون من المعارف(المعارف اللغوية والنحوية)، لأن حلقاتهم لم تكن مقصورة على تلقين مريديهم العلوم الدينية وحدها، ففي طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي إشارات واضحة إلى ما كانت تقدمه

مثل هذه الحلقات من المعارف في هذه الفترة وفي الفترات التي تلتها[14]. إنّ مثل إشارات الزبيدي في طبقاته تعزز ما ذهبنا إليه من أن الاهتمام بعلوم اللغة والنحو في الأندلس بدأ في القرن الثاني لحاجة العلوم الشرعية إليها خاصة، والعلوم الشرعية(لاسيما الفقه) سيبدأ رواجها في هذا الصقع في هذه الأثناء أيضا فابن خلدون في كلامه على طريقة تعليم الولدان القرآن يدرج قوانين العربية بين ما كان يُعنى به الأندلسيون في تحفيظه قال:" وأمَّا أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، ... إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأُسُّه ومنبع الدين العلوم، جعلوه أصلاً في التعليم. فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب"[15]، ونعتقد أن هذه كانت هي طريقتهم منذ البداية لأن اهتمامهم بالقرآن وبالعلوم الشرعية التي تتطلب التمكن من علوم العربية بدأ مبكرًا، فمذهب الإمام الأوزاعي في الفقه ساد في الأندلس قبل دخول بني أمية فقد روى عن هذا الإمام عدد من الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق في بدايات القرن الثاني وكذا بعض من طرأ على الأندلس من المشارقة. كما روى أندلسيون آخرون عن الإمام مالك الذي سيغلب مذهبه في الأندلس تدريجيا حتى يصبح المذهب الذي تسير عليه الدولة[16]. إن الفقه وغيره من العلوم الشرعية كالحديث وغيره التي ليس هنا محل الإفاضة فيها كان المهتمون بها غير ملتفتين عن علوم العربية، فأبو موسى الهواري على سبيل المثال وكان من فقهاء الأندلس الذين لقوا الإمام مالك ونظراءه من الأئمة، كان له اهتمام واضح باللغة، فلقي في رحلته الأصمعي وأبا زيد الأنصاري ونظرائهما وداخل الأعراب في محالها[17]، وعبد الملك بن حبيب الذي أخذ قبل رحلته إلى المشرق العلوم الشرعية عن غازي بن قيس (ت 199هـ) وعن صعصعة بن سلام (ت 192 هـ) وعن غيرهما، كان فقيهًا عالما و" جمع

إلى علم الفقه والحديث علم اللغة والإعراب ..."[18]، إلى غيرهما ممن لم يمنعه توجهه إلى العلوم الشرعية من أن يجعل من اللغة وعلومها جزءًا مهمًا من بضاعته، بل الملاحظ أن من الأندلسيين في هذا العهد (القرن الثاني للهجرة) من جعل من اللغة والنحو اهتمامه الأول مثل جودي بن عثمان النحوي (ت 198 هـ) الذي لقي الكسائي والفراء وأبا جعفر الرؤاسي وسواهم [19].

إن ما يلفت النظر هو أنه بدءًا من هذه الفترة من التاريخ الثقافي الأندلسي سيبدأ الاهتمام بعلوم اللغة في الظهور للعيان، فمن أوائل اللغويين والنحويين الذين ذكرتهم بعض التراجم الأندلسية أبو موسى الهواري والغازي بن قيس الذين ترجم لهما أبو بكر الزبيدي في الطبقة الأولى من كتابه الذي أفرده للنحاة واللغويين في الأندلس، فالأول منهما لقي في رحلته إلى المشرق – كما تقدمت الإشارة – الأصمعي وأبا زيد الأنصاري وسواهما من علماء اللغة في القرن الثاني، وداخل الأعراب، وهو ما رَجَّح أن تكون صفة اللغوي هي الغالبة عليه، وقد أدرك ذلك بنفسه فقال:" أنا شعبي زماني، فليسألني من شاء"[20]، والشعبي كما يقدمه من ترجم له من القدماء كان من المتضلعين من اللغة**، وقد ألف أبو موسى الهواري منذ هذا الوقت المبكر بالنسبة إلى الحركة العلمية في الأندلس كتابين أحدهما في القراءات والآخر في تفسير القرآن، والصلة غير منقطعة بين هذين العلمين وعلوم اللغة والنحو.

أما الغازي بن قيس فكان من المؤدبين، ومن بين مواد التأديب بالأندلس كما ذكر ابن خلدون تلقين الطلاب قوانين العربية وكان الاعتماد في ذلك على النصوص الأدبية والأشعار القديمة[21]. وغير بعيد أن يكون الغازي بن قيس ممن رسخت لهم القدم في علوم اللغة والنحو، وهو ما سَوَّغ للزبيدي إدراجه في الطبقة الأولى من النحويين واللغويين الأندلسيين.

ولاشك أن الناس تتلمذوا على هذين العالمين فأخذوا عنهما شيئا من علوم اللغة والنحو مثلما أخذوا عنهما علوم الدين. ومنذ هذا الوقت بدأت علوم العربية تأخذ طريقها نحو النضج. فقد تتلمذ على علماء هذا الوقت كثير ممن سيتولون مهمة خدمة هذه العلوم فعبد الملك بن حبيب أحد العلماء الذين برَزوا وعلا شأنهم في القرن الثالث حتى لُقِّب بعالم الأندلس ومفخرته، تتلمذ لعلماء القرن الثاني – كما تقدمت الإشارة- ثم رحل إلى المشرق وعاد عالمًا بارزًا ليس في علوم الشرع فقط إنما أيضا في علوم اللغة وفنون الآداب ووضع في ذلك تَواليف جَمَّة على حدّ تعبير أبي بكر الزبيدي وابن الفرضي[22]، وتتجلى جهوده في ميدان اللغة من خلال كتابه في شرح الحديث وغريبه الذي جعله عشرة أجزاء[23]. وتخرج على يد علماء القرن الثاني أيضا أبو حرشن عبد الله بن رافع الذي كان يحضر حلقات جودي النحوي، الذي سيأتي ذكره، فغدا علمًا شامخا في صدر القرن الثالث في علوم العربية، حتى إن الناس إذا استفصحوا رجلاً قالوا: ما هذا إلاّ أبو حرشن كما يقول الزبيدي. وتدعمت الحركة اللغوية في هذا الزمن بما كان يجلبه الأندلسيون من مصنفات لغوية من المشرق عند أوبتهم من رحلاتهم فعبد الله بن غازي بن قيس أحد علماء الأندلس في القرن الثالث عُنِي عناية كبيرة باللغة أثناء رحلته فلقي من بين من لقيهم من لغويي المشرق أبا حاتم السجستاني والعباس بن فرج الرياشي وأبا موسى عيسى بن إسماعيل العتكي وعددًا سواهم من رواة الأخبار والأشعار وأصحاب الغريب والمعاني، وبسبب ميله هذا إلى اللغة وما اتصل بها،

" أدخل الأندلس علمًا كثيرًا من الشعر والغريب والخبر، وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعار المشروحة كلها رواية"[24]. ويُعد محمد بن عبد السلام الخشني من العلماء الذين تعززت بهم الحركة اللغوية الأندلسية في المائة الثالثة بما توفر له من علم في هذا الميدان حصله من مجالسة

أساطين اللغة المشارقة في زمانه كأبي حاتم السجستاني والعباس بن فرج الرياشي، وأبي إسحاق الزيادي، فقد أخذ عن هؤلاء وعن غيرهم من مشاهير اللغويين، مثلما قال ابن الفرضي، " كثيرًا من كُتُب اللغة رواية عن الأصمعي وغيره ... وأدخل الأندلس كثيرًا من حديث الأئمة وكثيرًا من اللغة والشعر الجاهلي رواية"[25]، ورسوخ قدمه في اللغة هو الذي جعل الناس يتدافعون على حلقاته للتلمذة عليه، وقد أثبت الزبيدي في طبقاته خبرًا يَدُلُّ في ما يدل على المستوى الذي بلغه بعض تلاميذه في اللغة، قال الزبيدي:" لما قدم العجلي من العراق منع كتبه وضَنَّ بها، واستدعى الناس إلى أن يملي عليهم، فتسارب الناس إليه وانجفلوا إلى مجلسه، فخلا مجلس الخشني، قال عفير: فقال لي الخشني: مالك لا تسرع إلى ما أسرع الناس إليه؟ فقلت له لست أبغي بك بدلاً، فقال: أحب أن تأتي الرجل وتشهد مجلسه، فغدوت إلى العجلي فحضرته يملي المئرة وجمعها مرر، وكان أحد من يكتب بين يديه زيد الجياني – فقلت: يرحمك الله، قال أبو عبيد في المصنف: المئرة العداوة وجمعها مئر، قال: فكأني أنظر إلى زيد قد محا ما كتب، وقال: هذا الحق ثم رددت عليه ثانية وثالثة في المجلس، فانفض الناس عنه ولم يعد إليه بعدها أحد"[26] إن هذا الخبر يعطينا فكرة عن محفوظ الرجل من اللغة، وربما أفاد بأنه كان يحفظ المصنف برمته أو قسمًا كبيرًا من مادته على الأقل. ولدينا أخبارتَشِفُّ عن أن بعض العلماء كان يحفظ مثل هذه المصنفات، فالزبيدي يخبرنا أن موسى بن أزهر(ت 306هـ) المشهور بالعلم وباللغة والتقدم فيها كان يُقرأ عليه شرح الحديث والغريب المصنف ظاهرًا[27].

لا ينبغي أن يُفهم أن نشاط الحركة اللغوية كان مقصورًا على حاضرة الملك، قرطبة، فمدن الأندلس الأخرى لم تكن عارية من هكذا نشاط، يدلنا على ذلك ما كان بها من علماء مشهود لهم بالتقدم في هذا الميدان،

ولعل الخبر الآتي الذي أورده الزبيدي في أثناء ترجمته لخصيب الكلبي الذي وضع مصنفا في العربية نحو مصنف أبي عبيد، يؤكد ما ذهبنا إليه، قال الزبيدي" وكانت المشيخة من أهل مورور يذكرون أن الغرائق (البريد) كان يأتي من قرطبة من الخليفة محمد رضي الله عنه إلى خصيب يُستفتى في الكلمة من اللغة والمسألة من العربية تحدث عنهم"[28]. فغير بعيد أن يكون خصيب، وقد جاوزت شهرته مدينته، قد جلس ليأخذ الناس عنه اللغة وعلومها وأن يكون قد تخرج على يده عدد من العلماء في هذا المضمار.

بفضل هؤلاء العلماء وغيرهم ممن تجاوزنا ذكرهم وترجم لهم الزبيدي وابن الفرضي، أصبحت اللغة وعلومها من بين العلوم النافقة السوق في الأندلس، فعرف غير واحدٍ بغزارة محفوظه من اللغة وبتقدمه في علوم العربية، فيزيد بن طلحة تلميذ خصيب الكلبي، وتلميذ الخشني كان يعرف بيزيد الفصيح***، وأصبح هو نفسه أستاذًا من أساتيذ اللغة وعلم العربية. وقد أخذ علمه في الأندلس عن العالمين المذكورين وعن محمد بن غازي ولم يرحل على ما يبدو، فلا الزبيدي ولا ابن الفرضي ذكر له رحلة إلى المشرق، معنى ذلك أن الأندلس في هذه الفترة (القرن الثالث) بلغت درجة ذات بال من النضج الثقافي في مجال الدراسات اللغوية، فأصبح بإمكانها أن توفِّر للطالب ما يتوق إليه في هذا الميدان، بل أهلته إلى التفوق والبروز، والحادثة التالية التي أثبتها الزبيدي في طبقاته، فيها دليل على ما نذهب إليه، قال الزبيدي" أخبرني محمد بن عمر، أخبرني غير واحدٍ ممن شهد إبراهيم بن حجاج وقد قال له أبو محمد الأعرابي شاكرًا على شيء اصطنعه إليه، تالله ما سيدتك العرب إلا بحقك، فقال أبو كوثر الخولاني وكان حاضرًا، يا أبا محمد، العلماء عندنا بالعربية يقولون، سودتك، فقال السواد الشخام يخطئون ويصحفون، فانتهره إبراهيم وقال تتسور على الأعراب في لغاتهم. فكتب أبو الكوثر إلى يزيد بن طلحة بالخبر فأجابه:

المعروف سوَّرتك، بالواو ولعل ما ذكره أبو محمد لغة لبني عامر ... ولما أنكر الأعرابي هذه الإجابة أحضر يزيد بن طلحة إلى مجلس ابن حجاج، فلما اجتمع بهما المجلس قال يزيد للأعرابي" كيف تقول العرب ساد يسود، أو ساد يسيد؟ قال الأعرابي: ساد يسود، فقال يزيد هذه الواو معنى في الفعل، فكيف تقول العرب السودد أو السيدد؟ فقال: السودد، فقال يزيد هذه الواو ثابتة في الاسم، ثم قال: أي منزلة عندكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الفصاحة؟ قال الأعرابي: فوق كل منزلة، فقال يزيد فقد ثبت عندنا أنه قال:" تفقهوا قبل أن تسودوا"، وهذا حديث لم يطعن فيه أحد من علماء اللغة كما صنعوا في سائر الأحاديث التي وقع فيها الغلط فلج الأعرابي وقال: يا أهل الأمصار ماذا صنعتم بالكلام"[29].

إن هذه الحادثة تدل، في تقديرنا، أن حفظ اللغة عند علماء هذا الزمان لم يكن حفظًا ساذجًا، إنما كان يقوم على فهم المحفوظ وعلى التوفر على قدرة تعليل ظواهره.

وإنه ليمتد بنا الكلام لو ذهبنا إلى استقصاء كل من عرفوا بالتضلع من اللغة وعلومها، ففي كتب التراجم التي أفردت لعلماء الأندلس وفي طبقات الزبيدي منها خاصة كثير من الأخبار عن هؤلاء تنهض دليلاً على ما بلغته اللغة وعلومها من نضج في القرن الثالث، مع أن المضطلعين بعبئها لم تكن اللغة وحدها – في الغالب- كل بضاعتهم، إنما كانت جانبا من جوانبها مثلما هو الأمر بالنسبة إلى الخشني وعبد الملك بن حبيب اللذين سبق الإلماع إليهما وقاسم بن أصبغ (ت 310هـ) الذي قال عنه المقري" كان بصيرًا بالحديث والرجال نبيلاً في النحو والعربية والشعر ..."[30]، وغيرهم. وقد تخرج على أيدي هؤلاء جمعٌ من العلماء تولوا إتمام خطوات أساتيذهم في القرن التالي، ولعل أبرز من مال إلى التخصص في هذه العلوم بوجه

خاص هو محمد بن يحي الرباحي (ت358هـ) أحد علماء أواخر القرن الثالث ومنتصف القرن الرابع.

لم يكن النشاط اللغوي في هذا العهد يدور حول التدريس والمناقشة الشفوية فقط كما قد توحي الأمثلة المسوقة، بل ظهرت حركة تأليف أيضا في هذا الميدان، وقد ذكرنا عناوين بعض هذه المؤلفات فيما تقدم. ولابد من التنبيه إلى أن ما صُنِّف في اللغة في هذه الفترة كان غير منفصل عن الحديث في أغلب الحالات. ويرى بعض الدارسين أن هذه السمة التي تميزت بها المؤلفات اللغوية الأندلسية في هذه الحقبة هي الأثر المباشر الذي خَلَّفه كتاب" الغريب المصنف" لأبي عبيد القاسم بن سلام في نفوس اللغويين الأندلسيين. والحق إن الأندلسيين كانوا شديدي التعلق بأبي عبيد وبكتبه اللغوية خاصة، إذْ جعلوها "مقياسا لهم يحتكمون إليها ويوازنون بها ما يؤلفونه من أشباهها"[31]. ففضلا عن مصنف خطيب الكلبي وكتاب عبد الملك بن حبيب في غريب الحديث وشرحه، ألَّف ابن أبي غزالة كتابا في العربية وألف الخشني كتابا في شرح الحديث فيه من الغريب علم كثير، وأهم هذه المصنفات طُرًّا الكتاب الذي وضعه قاسم بن ثابت السرقسطي في شرح غريب الحديث، فقد حاز هذا الكتاب ثناء كثيرًا من العلماء، فأبو علي القالي يقول عنه" لم يؤلف بالأندلس كتاب أكمل من كتاب ثابت في شرح الحديث"[32]، وقدمه على كتابي عبد الملك بن حبيب والخشني اللذين أشرنا إليهما، أما ابن حزم فجعل فضل أبي عبيد علي قاسم بن ثابت بتقدم الزمن ليس غير، وذهب الزبيدي إلى أبعد من ذلك فسما به على جميع ما صُنِّف في معناه في المشرق نفسه[33].

ولّى القرن الثالث والأندلس قد بلغت درجة مهمة من النضج في علوم اللغة بفضل جهود أمثال الخشني وقاسم بن أصبغ والرباحي، وإن كان

الرباحي قد وجه عنايته إلى النحو خاصة ولكنه مع ذلك أسهم من غير شك في تطوير الدرس اللغوي. ويدلنا على ما وصلت إليه الأندلس في الحقل اللغوي في صدر القرن الرابع(وهو ثمرة للجهود التي بُذلت في هذا الميدان في القرن الثالث) ما يُذكر من أن أبا علي القالي عندما وصل الأندلس كان يتعجب من ذكاء أهلها" ويتغطى عنهم عند المباحثة والمفاتشة، ويقول لهم: إن علمي علم رواية، وليس بعلم دراية فخذوا عني ما نقلت فلم آلُ لكم أن صحّحت هذا مع إقرار الجميع له يومئذٍ بسعة العلم وكثرة الروايات والأخذ عن الثقات"[34].

إن هذا الإقرار من أبي علي القالي، يلقي الضوء على المنزلة التي بلغتها الأندلس في علوم اللغة في هذه الآونة، لأن محور نشاط القالي كان اللغة وعلومها بوجه خاص. لكن مع ذلك فإن قدمة القالي دفعت الدرس اللغوي نحو قمة النضج بما اصطحبه من مؤلفات نفيسة خدمت اللغة وعلومها. فمن دواوين الشعر التي جلبها نذكر: ديوان ذي الرمة، والحطيئة وعمرو بن قميئة والنابغة الذبياني، والأعشى والأخطل والفرزدق، ومن كتب الأخبار استقدم ثمانية وعشرين جزءًا من أخبار نفطويه وخمسة أجزاء من أخبار ابن الأنباري وثمانية وخمسين جزءًا من أخبار ابن دريد، وحدّث الناس، فضلا عن ذلك بكثير من أمهات الكتب ككتاب نوادر اللحياني ونوادر أبي زيد والأضداد لثعلب ...إلخ[35] كما خدم القالي علوم اللغة في الأندلس بعلمه الغزير الذي أخذه عن أمثال ابن الأنباري وابن درستويه وابن دريد، فغدا بذلك " أحفظ أهل زمانه للغة وأرواهم للشعر الجاهلي وأحفظهم له وأعلمهم بعلل النحو على مذهب البصريين وأكثرهم تدقيقا فيه"[36]. وعن أهمية أبي علي القالي ومحمد بن يحي الرباحي وأثرهما في ازدهار الحركة اللغوية الأندلسية يقول نعمة رحيم العزاوي" ولعلي لا أعدو الصواب إذا قلت إن الأندلس لم تعرف قبلهما من خطا بالدرس اللغوي خطوات

فساحًا نحو النضج والازدهار، فهما اللذان مكّنا لطلاب العربية هناك من أن يستغنوا عن الرحلة إلى المشرق للتفقه في النحو واللغة ... ولم ينجم في الأندلس قبلهما من بلغ شأوهما في امتلاك ناصية اللغة والتضلع من علومها"[37].

وقد أثمر هذا الجهدُ الذي بذله القالي في حلقاته، فبرز أعلام مشاهير في اللغة والنحو كأبي بكر الزبيدي (ت 379هـ) وابن القوطية (ت367هـ) وابن العريف والعاصمي (ت382هـ) وغيرهم. وعزَّز هذا الجهد في تطوير الحركة اللغوية بما وضعه من تواليف متنوعة يهمنا منها ما له علاقة باللغة، كالبارع الذي ألفه ليباري به المعجمات المشرقية، وقد أثنى الزبيدي على هذا الكتاب فقال" ولا نعلم أحدًا من المتقدمين ألّف مثله ... ولم يُصنَّف مثله بالإحاطة والاستيعاب"[38]، وقد زاد فيه على كتاب "العين" للخليل" نيفا وأربعمائة ورقة مما وقع في العين مهملاً، فأملاه مستعملا ومما قلل فيه الخليل فأملى فيه زيادة كثيرة"[39]، ووضع أيضا كتاب الإبل ونتاجها وجميع أحوالها، وحلى الإنسان والخيل وشياتها وكتاب النوادر وغيرها. ويمكن أن نضيف إلى جهود القالي جهود تلاميذه كالزبيدي وابن القوطية سواء أكان ذلك في التدريس أم في التأليف، فقد تخرج على يد الزبيدي عدد من الطلاب أخذوا عنه اللغة والنحو فكانوا خير من مد تيار هذه الحركة إلى القرن التالي. ومن هؤلاء الطلبة: ابنه أبو الوليد محمد بن محمد بن الحسن الزبيدي الذي سمع من أبيه كتاب العين، وأبو القاسم إبراهيم بن الأفليلي وغيرهما. وشارك الزبيدي في تعزيز الحركة اللغوية بتواليفه التي منها استدراك الغلط الواقع في كتاب العين ومختصر كتاب العين، ولحن العامة ومختصر لحن العوام والمستدرك من الزيادة في كتاب البارع لأبي علي القالي، وكان كتابه لحن العامة مثالاً للتأليف الأصيل، فمع كونه مسبوقًا بأبي حاتم السجستاني في هذا النوع من التأليف، فإنه لم يذهب

فيه مذهب المقلدين، وقد نَبَّه هو نفسه إلى ذلك فقال:" وإني لَمَّا تصفحت كتابه هذا رأيته مشتملاً على ما يشتمل عليه سائر الكتب الموضوعة في اللغة، ورأيت الفن الذي قصده والضرب الذي اعتمده وَوَسَمَ الكتاب به نزيرًا فيما بَيَّنَهُ من تفسير الغريب وتصريف الأفعال وتوجيه اللغات، فكان الكتاب مؤلفًا لغير ما نسب إليه وعُرف به"[40]، معنى هذا أن الزبيدي سيسلك في مؤلفه نهجًا آخر غير الذي ارتضاه أبو حاتم، من ثمَّ لا يقع الاتفاق بين المؤَلَّفَيْنِ إلا في العنوان، أمَّا في مادة الكتاب ومنهجه، وهما الأساس، فإنهما اثنان.

وإلى جانب الزبيدي، يطالعنا ابن القوطية بجهوده في التدريس والتأليف، فقد كان من أعلم أهل زمانه بالعربية وكان مع ذلك حافظا للحديث والفقه والخبر والنوادر وأروى الناس للأشعار ... إلخ لذلك فإن كتب اللغة كثيرًا ما قرئت عليه وأخذت عنه، واعترف له بالتقدم في اللغة كبار علماء وقته كالقالي الذي سأله الحكم المستنصر عن أنبل من رآه في الأندلس في اللغة فقال: محمد بن القوطية. ومن طلبته الذين حضروا حلقاته وأخذوا عنه: أبو الوليد بن الفرضي الذي قرأ عليه كتاب الكامل للمبرد. ومن مؤلفاته في اللغة "شرح صدر أدب الكاتب".

ولا يمكن أن نختم الكلام عما بلغته الحركة اللغوية من نضج على أيدي من ذكرناهم من دون ذكر اللغوي أبي العلاء صاعد البغدادي الذي وفد على الأندلس في النصف الثاني من القرن الرابع، فأراد المنصور بن أبي عامر أن يُعَفِيَ به آثار أبي علي القالي ويغطي عل شهرته. والواقع أن صاعدًا لم يكن من قامة العَالي في ميدان اللغة حتى يضيف جديدًا إلى ما شاده أو يُنسى الأندلسيين فيه، فقد اعترف في مناظرة جمعته ببعض تلاميذ أبي علي منهم الزبيدي والعاصمي وابن العريف أن بضاعته مقصورة على حفظ الأشعار ورواية الأخبار وفك المُعَمَّى وعلم الموسيقى ليس غير، وذلك

بعد أن ظهر عليه الزبيدي والعاصمي في مسائل في النحو والأبنية جرت بينهم، لذلك لا نجد له في اللغة سوى كتاب "الفصوص" الذي لم يحظ باهتمام لغويي الأندلس في زمانه بل طعنوا في قيمته العلمية وفي كفاءة مؤلفه الذي "دفعوه بالجملة عن العلم باللغة وأبعدوه عن الثقة في علمه وعقله ودينه، ولذلك ما رضيه أحدٌ من أهلها أيام دخوله إليها، ولا رأوه أهلاً للأخذ عنه ولا للاقتداء به"[42].

إن ما تميز به القرن الرابع عن سابقه في ميدان اللغة هو ظهور علماء انصرفوا انصرافا كليا إليها خلافًا لعلماء القرن الثالث الذين كانت اللغة تمثل جانبا من ثقافتهم الدينية فلم يمنحوها كلّ جهدهم ولكنهم مع ذلك قدموا لها خدمات كبيرة، كما تحرر التأليف في اللغة في المائة الرابعة مما كان مرتبطا به من حديث مثلما كان عليه الحال في القرن الثالث.

سبق أن ذكرنا أن أبا موسى الهواري والغازي بن قيس من أوائل من تعاطى علوم اللغة في الأندلس بما فيها النحو، سوى إن صفة اللغوي هي التي كانت غالبة عليها. وحسب الأخبار التي توفرها لنا كتب التراجم فإن أول من تمتع بصفة النحوي من الأندلسيين بالمعنى الدقيق لكلمة "نحوي" هو جودي بن عثمان (ت 189هـ) يؤكد ذلك اهتمامه في رحلته بملاقاة بعض من أعلام النحو في عصره كالكسائي والفراء وأبي جعفر الرؤاسي من نحاة الكوفة، وفضلاً عن هذا جلب معه كتاب الكسائي في النحو، ووضع مؤلفا في هذا العلم سماه "منبه الحجارة"، وهما دليلان آخران على ميله للتخصص في هذا الميدان، فتحلّق الناس حوله في قرطبة يأخذون عنه النحو، وهذا نموذج للمسائل النحوية التي كانت تدور في حلقاته، قال الزبيدي في سياق الترجمة له "في حلقته أنكر على عباس بن ناصح قوله:

يشهد بالإخلاص نُوتيُّهالله فيها وهو نصراني

فلُحِّن حين لم يُشدد ياء النسب وكان بالحضرة رجلٌ من أصحاب عباس

بن ناصح فساءه ذلك فقصد إلى عباس وكان مسكنه الجزيرة (الخضراء)، فلما طلع على عباس قال له: ما أقدمك أعزّك الله في هذا الأوان؟ قال: أقدمني لحنك، قال عباس: وكيف ذلك، فأعلمه بما جرى من القول في البيت قال، فهَلاَّ أنشدتهم بيت عمران بن حطان:

يومًا يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍوإن لَقيتُ معديًا فَعُدَنَانِي

قال: فلما سمع البيت كرّ راجعا"[43].

وإذا كان الزبيدي لم يورد لنا أي تعليق آخر على هذه المسألة من حضور الحلقة، فإننا نستبعد أن يغيب التبرير الذي قدمه عباس بن ناصح على رجل بَرَز في هذا الحقل المعرفي حتى استحق وصفه بـ"النحوي".

وفي هذا الوقت أيضا كانت لأبي الغمر عبد الواحد بن سلام الأحدب (ت 209 هـ) حلقة في قرطبة يدرس فيها النحو، فقد وصفه الزبيدي بأنه من أهل النحو والتأديب، والتأديب ينصرف في الغالب إلى تأديب الصبيان، وهو ما يرجح أن تكون المسائل النحوية التي كان يُعنى بها مع طلابه تدور حول مبادئ هذا العلم وأولوياته.

وفي القرن الثالث تزايد عدد المهتمين بالنحو، فعبد الملك بن حبيب الوارد ذكره بين من نَشَّط الحركة اللغوية في المائة الثالثة، كانت له عناية بالنحو أيضا، فقد وضع كتابًا في إعراب القرآن وهو تأليف ذو صلة حميمة بالنحو. كما كان حرشن يجلس بقرطبة لتدريس اللغة والنحو وكان من حضور حلقاته أحمد بن بتري الذي كان له اهتمام واضح بالنحو وباللغة حتى وصفه الزبيدي بـ"النحوي اللغوي"[44].

على أي حال فقد اهتم بالنحو غير واحد في هذه المدة كأبي بكر بن خطاب المكفوف الذي وضع في هذا العلم تأليفا حسنا على حدِّ تعبير الزبيدي، وتصادفنا إشارة في هذه الفترة إلى الاهتمام بكتاب الأخفش في النحو، فقد جمع بين أبوابه زيد بن الربيع بن سليمان الحجري (ت 300

هـ)، وكانت أبوابه متفرقة، فاقتدى به الناس[45]. وهناك إشارة أخرى إلى الاهتمام بكتاب الكسائي الذي جُلب إلى الأندلس في القرن الثاني، فقد عُني مفرج بن مالك بوضع شرح على هذا الكتاب وكان يجلس للناس يأخذون عنه النحو، أما كتاب سيبويه فإنه دخل الأندلس بوساطة محمد بن موسى ابن هاشم المعروف بـ"الأقشتيق"

(ت307 هـ)، فقد رواه عن أبي جعفر الدينوري وعن المازني، وجلس لتدريسه بقرطبة فأقبل عليه الناس يتدارسونه. وقد حظي كتبا سيبويه باهتمام غيرواحد من الأندلسيين كأحمد بن يوسف بن حجاج

(ت331 هـ) الذي لم يكن يجد عنه منصرفا حتى في أضيق أوقاته وأحرجها كما يقول الزبيدي، وسيزداد الاهتمام به مع قفول محمد بن يحي الرباحي (ت 358 هـ) من رحلته، فقد أخذه عن أبي جعفر النحاس، ولما عاد إلى الأندلس سلك طريقة جديدة في تدريس النحو مفيدًا من ثقافته المتنوعة في الفلسفة والمنطق والكلام، فانبرى يشرح الكتاب لتلاميذه ويفسره تفسيرًا مبينًا تسعفه في ذلك "دقة نظره ومنطقه وقدرته على الاستنباط وتحليل العبارات والغوص في العلل. ولم يكن يكتفي بقراءته لطلابه، فقد كان يعقد لهم مجلسا في كل جمعة للمناظرة في مسائله"[46] وقد أدرك القدماء أهمية هذا الأسلوب الجديد في تناول المسائل النحوية فكالوا للرباحي المدح والثناء الحسن، وهو ما فعله الزبيدي في طبقاته، والقفطي في إنباه الرواة. وقد دعم الدراسات النحوية وعضد الاتجاه البصري فيها دخول القالي الأندلس (سنة 330هـ)، فقد جلب من بين ما جلب من الذخائر كتاب سيبويه الذي قرأه على ابن درستويه "واستفسره جمعه وناظره فيه، ودقق النظر، وكتب منه تفسيره وعلّل العلة وأقام عليه الحجة وأظهر فضل البصريين على الكوفيين"[47]. كما خدم أبو علي

الدرس النحوي في الأندلس بمؤلفاته التي منها: المقصور والممدود، وفعلتُ وأفعلتُ، وأفعل من كذا.

وحمل راية هذه الدراسات بعد الرباحي والقالي تلاميذهما الذين عكفوا على دراسة كتب البصريين وكتاب سيبويه خاصة إلى جانب عنايتهم بكتب بعض الكوفيين. ومن أهم تلاميذ الرجلين الذين كان لهم إسهام واضح في الحركة النحوية في الأندلس، أبو بكر الزبيدي صاحب الواضح في النحو الذي ضمَّ موضوعات مختلفة في هذا العلم، وكتاب الأبنية وغيرهما. وقد بلغ من علوِّ الكعب في النحو أن وضع كتابًا يستدرك فيه ما في كتاب سيبويه من نقص. قال في خطبته:" وكان جلة المشايخ من أهل النحو فيما روينا عنهم يزعمون أن ما ألفه سيبويه منها يستوفي جميع أبنية الكلام ما خلا ثلاثة أبنية شذت عن جميعه فاستقصيتُ البحثَ عن ذلك وأنعمتُ النظر فيه، فألفيتُ فيه نحو الثمانين بناء لم يذكرها سيبويه في أبنيته ولا دلّ عليها أحد من النحويين بعده"[48]. ومن هؤلاء التلاميذ أبو بكر بن القوطية الذي وضع في النحو كتاب الأفعال وكتاب المقصور والممدود، ومنهم أبو عبد الله محمد بن عاصم (ت382هـ) الذي حمل عن الرباحي روايته كتاب سيبويه، وأحمد بن أبان (ت382هـ) الذي وضع شرحين على كتابي الأخفش والكسائي، وهي قرينة على استمرار الاهتمام بالنحو الكوفي إلى جانب الاهتمام بالنحو البصري كما لاحظ الدكتور شوقي ضيف. إلى غير هؤلاء الطلبة الذين أسهموا في نشاط الحركة النحوية تدريسًا وتأليفًا في أواخر المائة الرابعة.

إن ما تميز به القرن الرابع في مجال الدراسات النحوية هو ظهور العالم المتخصص الذي يقصر جهده في الغالب على النحو، كما تميز بالمؤلفات الدالة على نضج الدراسات النحوية وازدهارها وبأصالة هذه المؤلفات، إذ

لم يعد الاعتماد فيها على مجرد التقليد، وخير دليل على ذلك استدراك الزبيدي على علم شامخ من أعلام النحو العربي هو سيبويه.

صفوة القول إن الحركة اللغوية والنحوية في الأندلس في القرن الرابع الهجري قد بلغت من النضج والتطور ما قلل من كثافة الرحلات إلى المشرق من أجل الحصول على المعرفة اللغوية والنحوية بما أضحت توفره لطلاب الأندلس من علم في هذا المضمار.

الهوامش:

1 - أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968 1 /237 - 238

2 - Guichard Pierre, Les structures orientales et occidentales dans l'Espagne musulmane, Ed, Mouton, Paris 1977, p. 263

3 - المقري، نفح الطيب 1/333

4 - يُنظر مثلاً، المقري، نفح الطيب 1 /340 – 345 ،352 ،363، أبو بكر بن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تح، د. عبد الله أنيسا الطباع، بيروت 1958 ص -70 71، وص 84 – 85 و88 - 89 وص 92، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت (د.ت) 4/164 166- و170. ابن حيان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تح، د. محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت 1973 ص 313 - 314. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب من أخبار الأندلس والمغرب، تح ومراجعة، ج.س كولان وإ. ليفي بروفنسال، ليدن 1951 2 /69 - 70

5 - يُنظر، كامل كيلاني، نظرات في تاريخ الأندلس، المكتبة التجارية، القاهرة 1924، ص40

6 - يُنظر، الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة بيروت 1983، ص35 والمقري، نفح الطيب 1 /278 - 279 و3 /7 وما بعدهما.

* دخل موسى بن نصير الأندلس سنة 93هـ، ينظر ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، 2 /12 والمقري، نفح الطيب، 1 /269

7 - ينظر، المقري، نفح الطيب 1 /278 و3 /9

8 - ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت 1983 ص1055

9 - ابن خلدون، المقدمة، ص1055

10 - المقري، نفح الطيب، 3 /12

11 - محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي، القاهرة 1982، ص73

12 - ينظر، المقري، نفح الطيب، 1 /288

13 - المرجع السابق، 1 /540

14 - أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة 1973، ص256-254، 266 - 267

15 - ابن خلدون، المقدمة، ص1039

16 - عن دخول مذهب الإمام الأوزاعي ومذهب الإمام مالك الأندلسي في القرن الثاني، ينظر: ابن الفرضي. تاريخ علماء الأندلس، نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1966، 1/153، 203، ابن خلدون، المقدمة 805 - 806 والمقري، نفح الطيب 2 /45

17 - يُنظر: أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص255-254، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس 1 /345

18 - المقري، نفح الطيب 2 /6 - 7

19 - ينظر، ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، نشر وتصحيح السيد عزت العطار الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة 1955، 1 /355

20 - أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص253

** الشعبي هو عامر بن شراحيل، أبو عمر الهمداني (ت نحو 103هـ). وكان عالماً جليلاً، يُقال إنه أدرك خمسمائة من الصحابة، ترجمة الشعبي في حلية الأولياء 4 /310، وفيات الأعيان 3 /12 - 16، العبر للذهبي 1 /127، تهذيب التهذيب 5 /65

21 - ينظر ابن خلدون، المقدمة ص 1039، أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ص 288، آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ط1، مكتبة النهضة، القاهرة 1955، ص185

22 - ينظر: أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص260، وابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس 1 /269 - 272

23 - ينظر، تقديم الكتور شاكر الفحام لكتاب الدلائل في غريب الحديث لقاسم بن ثابت، نشر، مجمع اللغة العربية بدمشق 1976 ص52

24 - ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس 2 /22

25 - ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، 2 /14 - 15

26 - أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ص275

27 - ينظر، الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ص276 وابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، 2 /148

28 - الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص259

*** وُصِف غير واحد من الأندلسيين ممن عُنُوا باللغة وعلومها بالفصاحة، كبكر الكناني والرشاش وغيرهما.

29 - أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ص271 - 272

30 - المقري، نفح الطيب، 2 /48

31 - شاكر الفحام، تقديم كتاب الدلائل في غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام، ص56

32 - أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ص285، وأثبت المقري في النفح 1/49 كلامًا أثنى فيه على كتاب قاسم بن ثابت

33 - ينظر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ص285، والحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تح محمد بن تاويت الطنجي ط1، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة1952، ص 312

34 - ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح د.إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1975، ق1 م1 ص15

35 - ابن خيّر، فهرست ابن خير، تح فرنكشة قدارة زيدين وخليان ربارة، الطبعة الجديدة، بيروت، بغداد، القاهرة، 1963 ص389

36 - أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ص185

37 - نعمة رحيم العزاوي، أبو بكر الزبيدي الأندلسي وآثاره في النحو واللغة، مطبعة الآداب، النجف 1975، ص80

38 - أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ص186

39 - ابن خير، فهرست ابن خير ص354

40 - أبو بكر الزبيدي، لحن العامة، تح د.عبد العزيز مطر، دار المعارف، القاهرة 1981 ص36

41 - عن ابن القوطية، ينظر، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، 2 /76 - 77 وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، تح د. إحسان عباس، دار صادر بيروت 1968، 4/368-369. والسيوطي، بغية الرعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط. الأولى، مصر 1326هـ ص84

42 - ابن بسام، الذخيرة، ق4،م1،ص9

43 - أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ص256 - 257

44 - أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 266

45 - أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 284، والقفطي، إنباه الرواة على أنباء النحاة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب، القاهرة، 1950، 2/ 15

46 - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ط الرابعة، دار المعارف، القاهرة (د.ت) ص290

47 - القفطي، إنباه الرواة على أنباء النحاة، 1 /205

48 - أبو بكر الزبيدي، الاستدراك على سيبويه، تح أغناطيوس غودي، روما 1890(خطبة الكتاب).

من طب ابن رشد
إلى طب ابن حمادوش عبد الرزاق الجزائري

للدكتور الأستاذ سعيد شيبان
أستاذ طب العيون – جامعة الجزائر

تحت عنوان " كشف الرموز " مؤلف في المادة العربية
Révélation des énigmes - Un traite de médecine arabe

نشرت في باريس سنة 1874 الترجمة الفرنسية لكتاب طبيب صيدلي جزائري عاش في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي. اسمه عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري[1].

وقال عنه المترجم المعقب له الدكتور لوسيان لوكلير المؤرخ المشهور للطب العربي الإسلامي والمترجم لكتاب أبي القاسم الزهراوي في الجراحة. وكتاب المفردات الطبية لابن البيطار: ان هذا الطبيب الجزائري يمكن أن يعتبر آخر ممثل للطب العربي الكبير. ويضيف أن المادة الطبية المعروضة في هذا الكتاب بقيت مستعملة في الجزائر في السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي قبل أن يمنع الجزائريون من مزاولة المهنة الصيدلية على الطريقة الأصلية، وقد طبع النص العربي رودوسي قدور بن مراد في سنة 1928 في الجزائر العاصمة[2].

واتضح بعد دراسة أبي القاسم سعد الله أن النص المنشور ما هو إلا قسم من تأليف أكبر اسمه " الجوهر المكنون من بحر القانون " لما يعثر على

الأجزاء الثلاثة الأخرى[3] ونأمل أن هذا التنبيه سيساعد على الحصول على الأجزاء المفقودة من مؤلفات عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري.

إن المؤلف ابن حمادوش درس في الجزائر والمغرب الأقصى ورحل إلى المشرق في القرن الثاني عشر الهجري على هذا الأساس يكون هذا الطبيب الجزائري المرآة التي يمكننا أن تتعرف بواسطتها على مستوى الطب في المغرب وربما في المشرق في القرن الثاني عشر الهجري أي قبيل زحف نابليون على مصر وغير بعيد من احتلال الجزائر وكل ما تبع هذين الحدثين من تغيرات حضارية. وبما أن القاضي أبا الوليد ابن رشد الذي توفي في مراكش يعد آخر فلاسفة العرب درس الطب صغيرا ومارسه مدة كطبيب لأسرة أبي يعقوب المنصور بالمغرب والأندلس وألف كتابين في الطب لعبا دورا كبيرا في أوربا، وهما:

الكليات في الطب، وشرح أرجوزة ابن سينا في الطب، رأينا من المفيد أن نبحث عن مدى تأثر الطب في المغرب الإسلامي، وطب ابن حمادوش نمط منه كما أسلفنا، بالطب الذي عرفه ابن رشد وكتب فيه بالأندلس، ويمكن أن نعتبر أن الطب مثل الفقه، لم يجد العراقيل التي يقال إن فلسفة ابن رشد وجدتها لتروج من بعده عند المسلمين.

هذا مشروع بحث يتطلب عدة سنوات، ومساهمات متعددة ومتكاملة لأن آثار ابن حمادوش وغيره من جل أطباء القرون السنة التي تفصل سقوط قرطبة عن احتلال الجزائر، أي ما بين عهد طب ابن رشد وعهد طب ابن حمادوش الجزائري ما زالت مجهولة وأن هذا العرض نبذة أولى من نتائج البحث الذي بدأنا فيه نقدمه مع أمل الإفادة لمؤرخ الحضارة، والاختصاصي بفلسفة المعرفة عند ابن رشد والمهتم بفقهه على السواء.

إن مراجعنا في هذه الدراسة بالنسبة لابن رشد هي:

-الصورة الشمسية لمخطوط غرناطة للكليات في الطب (نشر تطوان 1939)[4] وقد شرعنا في تحقيقه قصد نشره مع الدكتور عمار طالبي.

-شرح الأرجوزة في الطب.

-"بداية المجتهد ونهاية المقتصد"[5].

-فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال[6].

ودراسات نشير إليها في المراجع.

أما ابن حمادوش فنستعمل ترجمة لوكلير لكشف الرموز وتعقيباته، وأطروحة قابريال كولان[7]. وأبحاث الدكتور أبي القاسم سعد الله والنص العربي المطبوع بالجزائر سنة 1982 لكشف الرموز.

قبل الشروع في عرض هذه النبذة يجدر بنا أن نتذكر أنه لا ينتظر من ابن رشد ولا من أحد غيره أن يقدم لنا تصورا كاملا للطب... يكفي الحكيم أن يثبت مما أخذه الأصوب ويقدم رأيا أو آراء غير بعيدة عن الواقع ومنسجمة مع أساس تفكيره السائد، مع هذا التحفظ وانطلاقا من مطالعتنا الأولى لتراث ابن رشد يمكننا أن نرسم لمشروع هذا البحث خطة تكاد تكون شاملة لكل العناصر الكبرى لما تفهمه حاليا، ونجد أن ابن رشد التمس الصواب وبحث عنه في كل عنصر من هذه العناصر بالنسبة لعصره.

لا يسعنا إلا أن نسرد النقاط الأساسية مرجين التفصيل والشرح إلى دراسة تابعة إن شاء الله، فلنبدأ بالتعريف الذي يقدمه ابن رشد للطب:

" إن صناعة الطب هي صناعة فاعلة عن مبادئ صادقة يلتمس بها حفظ بدن الإنسان وإبطال المرض وذلك بأقصى ما يمكن في واحد من الأبدان فان هذه الصناعة ليس غايتها أن تبرئ ولابد، بل أن تفعل ما يجب

بالمقدار الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب ثم تنتظر حصول غايته كالحال في صناعة الملاحة وقود الجيوش".

إن تعريفه للصحة والمرض والهرم وحالة الزمناء والموت يفيد القارئ المعاصر وكذلك موضوعات الطب ووسائله من نافع ومضر ومن حلال وحرام، وضرورة الدفاع عن الصحة والحياة وتكوين الطبيب بداية واستمرار البحث عن الحقيقة والإيمان بالتقدم.

تطرق ابن رشد في كتبه الطبية والفقهية والأصولية إلى الأبواب التالية المفيدة للطبيب:

- المنطق وحدوده.
- العلم الطبيعي واستقلاله.

التشريح منوها على ضرورته للجراحة، ودوره في زيادة الإيمان.

- الصحة ووظائف الأعضاء والأمل الكبير في رقيه.
- علم الأمراض من أثار السموم والبيئة والأفراط والاستعدادات المرضية.
- التشريح المرضي في الجروح.
- تصنيف الأمراض وأعراضها وعلاماتها من الطر الخفي إلى المضاعفات.
- التشخيص و"تفاوت الناس فيه لتفاوتهم في الارتياض والذكاء".
- تقدمة المعرفة ودور معرفة تطور المرض وقد مكنته من تقديم رأي جديد في حصول المناعة من إصابة أولى بالجدري، وقد استعمل هذه القاعدة في التشخيص المبكر، للتفريق بين الجدري والحميات الأخرى في أطوارها الأولى.
- يقدم لنا عرضا قيما في تركيب الأدوية، ونظرة للأغذية تشتمل على فوائد عديدة على اختلاف جودة السمك حسب المياه التي يعيش فيها.

- طبائع الحيوانات المفترسة وتأثيرها على من يأكل لحومها، وحكمة الشرع الحنيف في تحريمها.
- ضرر الانبذة على الأعصاب.
- حفظ الصحة ويقول عنه أنه "أشرف جزئي الصناعة".
- الوقاية من الأمراض في حالات الاستعدادات المرضية انطلاقا من قواعد الفقه.
- غسل الإناء الذي ولغ فيه كلب.
- إبطال نكاح المريض.
- العلاج السببي ما أمكن قبل المرضي.
- ما نسميه بالطب الشرعي في الجروح والديات.

ويعرض لنا ابن رشد تلك الطريقة الحكيمة التي أمرنا بها الإمام علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه في تقويم النقص الجزئي من إصابة جزئية للعين بمقارنة حسابية لإبصار العين السليمة والعين المجروحة لبيضة تبعد إلى أقصى حد الرؤية.

فنجد في طب ابن رشد انسجاما كبيرا بين العلم والدين، بين التجربة والقياس، بين العقل والنقل في كثير من موضوعات الطب، ونجد عنده لغة عربية علمية لها طابع مميز تضاف ثروتها إلى لغة الرازي والخوارزمي والبيروني، إلى لغة ابن سينا، وأبي القاسم الزهراوي، ولغة كامل الصناعة.

يجد القارئ لكتابات ابن رشد الطبية متعة خاصة يجب أن ييسر لأكبر عدد ممكن من القراء والمثقفين الاطلاع عليها والاستفادة منها.

مع هذه الحسنات نلاحظ بعض السلبيات لما نجد إشارة إلى الأمراض العقلية في كتاب الكليات كما لم يتطرق إلا قليلا لفوائد العبادات من الجهة الطبية.

درس الأوربيون طب ابن رشد في هذا العصر، فقوتي أشاد بخصال بن رشد وناقش ردوده على الكندي، ولم يجد ما يهم في طب ابن رشد،

أما موليرو توري(8) الذي اتخذ طب ابن رشد موضوع أطروحته في الطب وترجم جزء التشريح والصحة من اللاتينية إلى الاسبانية ونوه ----- الجديدة التي وجدها عند ابن رشد في هذين البابين، و-----[9] قبله تعرض إلى موقف ابن رشد إزاء جالينوس في تصور التنفس وفهمه.

أما عند المسلمين فلم يصدر بحث طبي حوله إلى الآن.

تصور ابن رشد لمبادئ العلاج والتشخيص لا يختلف اختلافا جذريا عن تصور الرازي أو ابن سينا فهو منطلق مما يسمى الطب اليوناني الهندي المصري مرتكزا على الأخلاط الأربعة والأمزجة في الأجسام والأدوية مع استعمال العقاقير النباتية خاصة تلك التي تقرها التجربة الفردية مضيفا إلى ---- الموقف الإسلامي من المحرمات من الأغذية مطلقا والأدوية ما أمكن.

فالاعتقاد جازم من العثور على أشياء أخرى جديدة عندما تحقق وتطبع جميع تآليف ابن رشد الدينية والفلسفية والطبية..

وآثار ابن الزهر التي نوه بها وأقر جزئيات العلاج الموجود فيها ويمكن أن تعتبرها من طبه.

من أهم ما عثرنا عليه أثناء مطالعتنا لآثار ابن رشد أنه توصل إلى مفهوم طبي مهم جدا لم ينتشر ولم يقر إلا في القرن العشرين الميلادي أي 800 سنة بعد ابن رشد:

قد التمسنا في كتابه المطبوع حول الفقه المقارن "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" بعض تأويلاته لأمور لها علاقة بالطب فوجدنا أنه يعبر في هذا الكتاب عن:

1 - إمكانية العدوى وقبولها شرعا .

2 - العدوى عن طريق مادة يمكن ألا ترى تكون عالقة بإناء.

3 - العدوى عن طريق حيوان مريض غير ظاهر المرض .

وهذا كله على أساس ديني محض، ولأهمية هذا الابتكار الفكري في ميدان الطب عند ابن رشد

نرى من المفيد أن نقدمه في نصه إذ لم يشر إليه من هذه الناحية:

في شرح حديث غسل الإناء يقول أبو الوليد ابن رشد:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمر بغسل الإناء سبع مرات بعد إفراغه من الماء أن لاغه كلب أمر يتعلق بالصحة والطب. في الحديث المتفق عن صحته عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال " إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه وليغسله سبع مرات " وفي بعض طرقه أولاهن بالتراب وفي بعضها " وعفروه الثامنة بالتراب " وقد ذهب جدي رحمه الله في كتاب المقدمات إلى أن هذا الحديث معلل معقول المعنى ليس من سبب النجاسة بل من سبب ما يتوقع أن يكون الكلب الذي ولغ في الإناء كلبا فيخاف من ذلك السم. قال ولذلك جاء هذا العدد الذي هو السبع في غسله فان هذا العدد قد استعمل في الشرع في مواضع كثيرة في العلاج والمداواة من الأمراض. وهذا ما قاله رحمه الله هو وجه حسن على الطريقة المالكية.

واختلف متى يغسل الإناء سبعا من ولوغ الكلب وقيل بفور ولوغه وقيل عند إرادة استعماله وإذا كان غسله تعبدا فلا معنى لتأخير العبادة وإنما يجب غسله عند إرادة استماله على القول بأنه يغسل لنجاسة لا لعبادة - قال القاضي ولا يتعلق بالاستعمال والذي أقول به في معنى أمر النبي صلى الله عليه وسلم لغسل الإناء سبعا من ولوغ الكلب والله أعلم وأحكم أنه أمر ندب وإرشاد مخافة أن يكون الكلب كلبا يدخل على أكل

سؤره أو مستعمل الإناء قبل غسله منه ضرر في جسمه . والنبي صلى الله عليه وسلم ينهي عما يضر بالناس في دينهم ودنياهم فقد قال عليه الصلاة والسلام " لقد هممت أن أنهي عن الغيلة حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم شيئا ." لا لنجاسة إذ هو محمول على الطهارة بالأدلة المذكورة وإذا لا توقيت في عدد الغسل من النجاسة ...

لأن السبع من العدد مستحب فيما كان طريقه التداوي لا سيما فيما يتقي منه السم فعلى هذا التأويل لا ينبغي شرب الماء الذي ولغ فيه الكلب لما أرشد النبي عليه الصلاة والسلام إليه مما يتقي منه .

وقد اعترض عليه فيما بلغني بعض الناس بأن قال أن الكلب لا يقرب الماء في حين كلبه وهذا الذي قالوه هو عند استحكام هذه العلة بكلام لا في مبادئها وفي أول حدوثها فلا معنى لاعتراضهم.

وأيضا فإنه ليس في الحديث ذكر الماء وإنما فيه ذكر الإناء ولعل في سؤره خاصية من هذا الوجه ضارة أعني قبل أن يستحكم به الكلب ولا يستنكر ورود مثل هذا في الشرع ". من هذا يظهر أن الوعاء يمكن أن يكون مضرا بمادة غير ظاهرة كما أن الكلب المريض يمكن أن يكون به سؤر ضار قبل أن تظهر علامات المرض عليه، وهذا يمكن أن يتكون منه المفهوم العصري للناقل "السليم".

هنا المفهوم الذي يشترك فيه ابن رشد الجد والحفيد لم يشر إليه أحد من المؤرخين للطب وربما يكون السبب أن هذه الفكرة نشرت في كتاب ـ... ألا يكون تعصب أوروبا في وقت ما على الأقل منعها ومنع البشرية معها من الاستفادة من هذا التفكير المبكر...؟ أما العالم الإسلامي... كتب الفقه هل يقرؤها غير الفقهاء ؟ نحن لا ندري عسى البحث يطلعنا على الجديد، لو نوقش هذا الكتاب في بيئة علمية كافية أو شرح لأفاد واستفاد منه الكثير

لا نعرف شيئا كبيرا عن آراء ابن حمادوش في أسباب الأمراض لأن الجزء المتعلق بها لما يصل إلينا، ولكنا نراه في كشف الرموز يستعمل الطب العربي الإسلامي الذي درسه في كتب ابن سينا خاصة الأرجوزة في الطب في شرح ابن رشد لها وتصوره يكاد يكون شبيها بتصور ابن رشد وابن سينا للطب.

نلاحظ أن تكوينه – واهتماماته على قدر ما يظهر من تأليفه التي عرفنا على عناوينها الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي اطلع على جزء من رحلة ابن حمادوش – تكوين يشبه في أساسه تكوين ابن رشد واهتماماته مع مراعاة الفرق بين درجة الطبيبين وعصرهما .

إن ابن حمادوش كان يهتم بالعلوم الأساسية، بالطب وبالصناعات ويهتم بكتب الفقه والمنطق ويجالس العلماء ويرحل في سبيل العلم وقد ألف كتبا عديدة تعتني بشتى ميادين المعرفة فانا نجد في كتابه المطبوع "كشف الرموز" أنه اطلع على كتاب بالتركية في الطب "غاية البيان" ونجد أدوية جديدة لم تكن معروفة في زمان ابن رشد وهي أدوية استعملها الأوربيون مثل الدواء ضد السفلس وكانت تسمى في الجزائر المرض الكبير أو "مال فرانصة" (Mal Francis) والدواء صد حمى المستنقعات وهي الكانكينا وأدوية أخرى أقرتها التجربة في عهد داود الأنطاكي الذي استقى ابن حمادوش الكثير من كتابه "التذكرة".

إن ابن حمادوش استنسخ في مقدمة تأليفه حول العقاقير صفحات من كتاب القانون لابن سينا ولم يخف ذلك بل نبه إلى أنها بحروفه، وقد درس ابن سينا وإقليدس وجالينوس وابن البيطار وداود الأنطاكي و "غاية البيان" "بالتركية" والدمياطي وابن ماسويه والشريف الإدريسي والتلمساني والزروق .

وقد ألف في المنطق " الدرر على المختصر" وهو شرح مختصر الشيخ محمد بن يوسف السنوسي.

- وفي النحو له (السانح) وهو شرح على ألفية ابن مالك.
- وله ديوان في شعر الغزل.
- الروزنامة.
- علم الفلك.
- الأسطرلاب.
- رصد الشمس.
- صورة الكرة الأرضية.
-علم البلوط وهو معرفة الطرق البحرية .
- الجوهر المكنون في الطب.
- علم التكعيب.
- علم البونبة.
-تأليف في الميزاج وتأليف في الطاعون.

نجد أن عدد الأدوية عنده يقرب من الألف وعند ابن رشد 211 دواء،وعند البيروني 1141.

نعطي هذه الأرقام مع التنبيه على الفرق بين روح التآليف الثلاثة. فالكليات في الطب على حد تعبير ابن رشد كتبه كاستقساط للصناعة. والصيدنة كتبه البيروني كجرد للمادة الطبية الهامة في زمان. وكشف رموز جمع فيه ابن حمادوش ما يهم من أدوية عند المسلمين والأوروبيين في القرن الثامن عشر الميلادي.

ما هو مدى تأثر ابن حمادوش مباشرة أو بطريق غير مباشر بتآليف بن رشد.

لا يمكن أن نعرف ذلك إلا بعد نشر آثارهما ومع ذلك فابن حمادوش امتنع عن استعمال الخمر في الدواء مثل ما امتنع ابن الرشد.

ويلح ابن حمادوش على أهمية التجربة والاطلاع على الجانب العملي في اختيار الأدوية وإعدادها. ونراه متفتحا لكل ما يصل إليه من معلومات في الطب والصيدلة وهو مستقل في حياته، يعيش من عمل يده وبيع الكتب مقبلا على الحياة الصعبة الكريمة

بما أنه عاش برهة من الزمن غير معروفة في مصر ربما يحصل الباحثون على مخطوطات له تمكننا من دراسة ومعرفة أكثر للتسلسل الحضاري ومعوقاته في العالم الإسلامي مدى القرون التي تفصل بين بداية الهزيمة في الأندلس وانطلاق الحملة الاستعمارية المباشرة في شمال إفريقيا من طرف الفرنسيين .

وبفضل القرآن الذي حفظ اللغة العربية تمكن ابن حمادوش من فهم الأرجوزة ودراسة طب موضوعي بعيد عن الخرافات التي طغت من بعد على العقول بسبب الجهل والفقر والمنع الاستعماري.

نجد عند ابن حمادوش طبا معقول مبنيا على التجربة متفتحا، فقد أخذ عن علماء الجزائر والمغرب الأقصى حيث أعجب خاصة بالحكيم عبد الوهاب أدراق طبيب مولاي إسماعيل وأولاده وقد نشرت قبل ابن حمادوش بخمسين سنة أرجوزة في الحب الإفرنجي مثلما أخذ عن علماء مصر.

هل يمكن أن نحلم حول هذا التفتح وثماره لو... تمكن ابن حمادوش من حياة مستقرة من الناحية المادية ولم يضطر إلى التجارة ليعيش، ولو وجد من يماثله ؟

مما نستخلصه من هذه الدراسة .

1 - ضرورة القراءة الدقيقة لكتاب "الكليات" ومقارنة المادة الطبية فيه خاصة مع المادة الطبية الموجودة في "كشف الرموز".

2 - ضرورة التبادل بين ميادين الاختصاص لكي نتمكن من محو ما يطغى علينا من جهل بتراثنا العلمي والديني على السواء. إذ لم يفرق علماؤنا بينهما، وهو لحسن حظ المعرفة كما رأيناه.

كشرط أساسي للقيام بهاتين المهمتين لا بد من بذل الجهد في استعمال اللغة العربية رغم كل الصعوبات التي تجابه جيلنا من المتخرجين من الجامعات الأجنبية.

المراجع:

1 - كشف الرموز: KACHEF ER ROUMOUZ

Révélation des énigmes d'Abder-Rezzaq Eddjezaïry

Traité de matière médicale arabe d'Abder-Rezzaq l'Algérien

Traduit en arabe par le Dr. Lucien Leclerc

Baillère, Paris, 1874

2 - كشف الرموز في بيان الأعشاب للشيخ عبد الرزاق بن حمدوش الجزائري، المطبعة الثعالبية، لرودوس قدور بن مراد التركي، الجزائر 1347 هـ 1928- م.

3 - الأصالة عدد 1396-38 هـ1976-م، 24-2، أبو القاسم سعد الله، عبد الرزاق ابن حمدوش الجزائري ورحلته (لسان المقال)

4 - نسخة شمسية من مخطوط الكليات في الطب لأبي الوليد ابن رشد – تطوان – 1939.

QUITABLE EL KULIAT

Libro de las generalidos

Artes grafias Busca-Larrache

5 - بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار الفكر، ج.1، ص.22.

6 - نفس المقال .. لأبي الوليد ابن رشد، نشر وتحقيق، الدكتور الشيخ بوعمران، الجزائر 1977.

7 - Docteur Gabriel Colin

Abderazeq El Djasaïri , Thèse Université d'Alger, 1905

8- Torre – La Sciença Medicena Del Averro. Madrid.

9- Bürgel.

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
- وحدة الرغاية - الجزائر
2017
Achevé d'imprimer sur les presses
ENAG, Réghaïa
-Algérie-
Bp 75 Z.I. Réghaïa Tél: (023) 96 56 10 /11

الإيداع القانوني : 2005-1513
ISSN : 1112-65-23 ردمد